- غرناطة.
- احتضار الثقافة العربية.
- آخر آثار الفن العربى فى أوربا.

فى شمال سفح سييرا نفادا الغربى، وهو أعلى سلسلة جبال فى أوربا بعد جبال الألب، يمتد واد مرتفع لا يكاد يعدله واد آخر فى ثراء مفاتنه وتنوعها. ولو أن ذلك المكان لا يملك إلا الجمال الذى سكبته الطبيعة فوقه بسخاء فحسب، إلا أنه يُعد دائما أحد الأمكنة الأكثر شهرة فى العالم، وحتى يحدث سحرا أكبر، وفتنة تجتاح الزائر من كل جوانبه، اختاره التاريخ موطنا لذكريات خالدة، ومد الشعر فوقه غلالة رقيقة، وزيَّنه الفن بأروع إبداعاته جمالا.

من منّا لم يحلم يوما بأن يذهب إلى غرناطة، ويتجول تحت أروقة قصورها الفاتنة، أو بين حدائقها الغناء، تتدلى من الصخور أو تنهض على الروابى، أو تمتد فوق وديان تلفها أشجار الحور؟

ثمة كلمات مجرد النطق بها يصنع للخيال أجنحة!، ومن بينها كلمات الحمراء وجنة العريف، كلتاهما ترن فى أعماق النفس مثل توسل قوى، وتدفع أمامها بألوان من الصور مجسمة: الأعمدة الهيفاء، تمتد عاليا، كأعمدة المياه المندفعة من النوافير، وحفلات ومبارزات تحت أروقة مقنطرة، فى الهواء الطلق، ونزهات ليلية بين خرير الجداول الصافية، على حين يعبق الجو بشذا الآس وأريج الريحان، ويرن فى الأكام صدى أغنيات ناعمة ناعسة، وإلى جانب هذه المناظر الهادئة، تبدو مشاهد أخرى تصور مأساة سقوط الحكم العربى، وعنف الصراع البطولى بين العرب والإسبان، حيث برهن المسيحى على حماسته فى مواجهة بسالة المسلمين. وإذا تعمقنا بكل قوانا فى وضح التاريخ، نصف غائم حتى الآن بين سديم ضوء الشعر وإبهامه، بدت لنا حرب غرناطة كآخر قصيدة فروسية فى العصر الوسيط، وتقف حدا فاصلا بينه وبين العصر الحديث.

ولكى تبدو أهمية هذه الأمكنة تاريخيا، على نحو أشد وضوحا، سجلت بأقوى الوسائل تعبيرا قيام عصر جديد، لا فى إسبانيا فحسب، وإنما فى أوربا كلها أيضا. ففيها تلقى كولون، أو كولومبس، الأمر بأن يقود الأسطول الذى اكتشف أمريكا بعد أشهر قليلة من الاستيلاءعلى غرناطة، وهكذا يمكن أن نلمح فوق أنقاض القصر العربى العالم الجديد، والذى ربما يحتفظ فى أعماقه بمستقبل الجنس الإنسانى. وبعد ذلك بثلاثين عاما ثبّت كارلوس الخامس، أو شارل الأول فى أوربا، مقره فى الحمراء، وكان يحكم إمبراطورية لم يسبق أبدا أنْ كانت، فى اتساعها، تحت صولجان أى مخلوق آخر. ولمع على باب الحمراء، إلى جانب «لا غالب إلا الله» شعار بنى نصر،النسرُ الإمبراطورى الجرمانى، رمز قوتنا حينئذ، ومعنى وطننا مجسما.

لا يعنينا هنا أن نتحدث عن أشياء أخرى يمكن أن تسهم أيضا فى إثارة الاهتمام بتلك الأمكنة، وإنما يهمنا فحسب أن نكتشفها فى خصائصها المحلية، وفى أهم لحظاتها التاريخية، فهى المكان الذى نبت فيه، وتطور، آخر ازدهار شهدته الثقافة العربية فى أوربا، ثم رحلت بعد ذلك إلى الأبد.

توجد مدينة غرناطة فى سفح سييرا دل سول، وتتناثر على جوانب هذه الفتحات بين الصخور، ويمتد وادى شنيل ووادى الدارو، وجانب من المدينة فى الوادى، وجانب آخر فوق الآكام والربى، فهى موزعة على قسمين، يفصل بينهما امتداد عمق وادى الدارو، أحدهما على القمة، ويسمى الحمراء عادة، بسبب القلعة التى توجد فوقها، والثانى فى المنحدر، ويسمى البيازين، وتبدو القصبة القديمة فى أعلاه، وحول المدينة، بعيدا عن المنطقة الجبلية التى تطوقها، يمتد الوادى الأخضر، يعبق بأريج الزهور، وبين غاباته الصغيرة ذات الآكام النضرة، يلمع نهر شنيل الفضى متعرجا كثعبان، ويكون مع الوديان والربى وقمم لاسييرا نفادا، تتوجها الثلوج البيضاء اللامعة، منظرا طبيعيا بالغ الجمال والروعة، شديد الإغراء والفتنة، بين النبل والرشاقة، كما لو أن الطبيعة أرادت أن تعرض كل قوتها الخالقة من خلال عمل أستاذ، وأن تضع فى مكان واحد كل ثروات خزائنها، فجمعت فى هذه المقاطعة المحظوظة من الأرض كل ما يكون عادة موزعا ومنتشرا فى مقاطعات عديدة ومتباعدة، فتبهج روح المسافر وحواسه.

باب السيادة، أو الباب الجديد، وهو فى أسوار القصبة القديمة

إن الخضرة الغضة الناصعة التى تتمتع بها بلاد الشمال، وتدفع لها الثمن جوا حزينا مقبضا، مظلما مضبّا، لارتفاع موقعها، وقربها من كتل الثلج الكبرى، والتى لا تذوب كلها أبدًا، تقابلها هنا سماء زرقاء صافية بلا سحب ولا ضباب. وبين أشجار الحور والبلوط والدرداء التى توزع فيئها اللطيف على الربى والوهاد، تمتد أنضر مناطق الجنوب خضرة : أشجار البرتقال تلمع بتيجانها من الأوراق خضراء فاقعة، وجماعات من أشجار الصنوبر والسرو تمد رءوسها الرشيقة والخفيفة فوق بحر من الخضرة، وأشجار الغار النبيلة، وأعشاب كثيفة من الدفلى، وأشجار الرمان تترعرع فى مثل هذه الخصوبة، وتبلغ ارتفاعا عملاقا، وتبدو وكأنها نمت لتغطى وتظلل بأفنانها البراقة، ذات الخضرة المذهبة، جوانب الربى الناعمة. وأنّى توجهت ترى قرى بيضاء بين العرائش، وحيثما أردت تسمع وشوشة الجداول الصافية وخرير الشلالات الرنانة، وأنت تعبر الغابات أو تجتاز الأشجار، وهذا البهاء من الخضرة، وهذه الوفرة فى المياه، تدفع بالحياة فى كل شىء، ويصحبها ضوء ساطع من شمس تكاد أن تكون استوائية، ومن طبيعة الأرض الفريدة تتيح لكل شىء فوقها أن يبدو فى أروع ألوانه، وفى أبهى صفاته، فتزيد من سحر المناظر الطبيعية وفتنتها، حتى تبلغ بها حد الخلود.

نعم، لا توجد غابات فى المرتفعات، لأن هذه مجرد صخور جرداء، ولكنها نفسها تترك جداول الضوء فى الصباح تتلوى، ومثلها يحدث فى المساء وتعطيها ذلك البريق العميق، وتحدث فى السماء ذلك التورّد الحاد، وتصنع ذلك التنوّع الثرى الذى يرتديه الفجر والأصيل فى الجنوب، كما لوكان لمعانًا قادمًا من عالم آخر فاتن. وهذه الجبال العالية المتدرجة تطوق وادى شنيل المرتفع الباسم، تميل بعنف فى مكان، وتأخذ شكلاً صعبًا خياليا، يجىء فى صورة أبراج متعرجة، وترتفع فى خطوط طرية ملتوية فى مكان آخر، وتقدم فى مجموعها جوانب واضحة التمايز، ومنها تتكون سيرا مكلين Moclin، وسيرا بيرة Vira وسيرا نفادا، وهذه الأخيرة من بينها شديدة الارتفاع، وتتوج قمتها الثلوج البيضاء، وترتفع فى شكل مسلات متآكلة،وأهرامات عملاقة، وشرفات متناثرة، وسفافيد متباعدة، تفصل ما بينها شقوق عميقة.

لك أن تتخيل شمس الأندلس عندما تميل الى الغروب، وقد أراقت شعاعها القوى فوق هذا المنظر الطبيعى االعجيب، واستحال بريقها الذهبى شعلة من أرجوان ملتهب، يجرى مرتعشا ويعكس كل مراتب الألوان والأنغام، الى أن تغطى الظلال والوديان والوهاد والربى. ومع ذلك، عندما يأتى المساء تبدو قمم جبال بليتا Veleta ومولاى حسن Muthacen ، وقد غطاها الثلج، منارة هادية، تراها السفن التى تشق عباب البحر الأبيض المتوسط من بعيد، وتلوح لهذا البريق المتألق مودعة ومحيية.

جميلة فى كل العصور هذه المقاطعة !، ولا مثيل لها، وبخاصة فى الربيع، عندما تذوب الثلوج على قمم الجبال، وتدفع بالمياه غزيرة فى الجداول والسواقى والأنهار، وتحدث فيضا من الخضرة الزاهية، وليس أروع فى هذه اللحظة من زهور اللوز، ويسميها الشعراء العرب «أول بسمة الربيع فى فم العالم» تعلن عن مجىء أرق فصول العام، فتزهو الوديان والربى بخضرة زمردية، وتبدو الزهور فى كل مكان، تتنافس فى بهاء الألوان، وطيب الأريج، وفوق الشلالات الراغية يمد شجر الرمان أغصانه، وقد اكتست أوراقا جديدة، وبين خضرتها يلمع بريق براعمها الحمراء، وقد تفتحت قليلا، وحولها ترن الدفوف الصاخبة[1]، وتهدل البلابل فى أعالى الشجر، بأغان من أيام العرب، لم تنسها حتى اليوم، وصفاء الجو، وطيب هواء سيرا نفاذا يجعلان من مجرد التنفس تحت سماء غرناطة متعة، لأن الأرض لا تكاد تعرف لمثل هذا شبيها فى أى مكان آخر.

ليس وراء هذه الكلمات لحاباة دفعتنى اليها عاطفة منفعل، كما يمكن لأحد أن يظن، وجعلتنى أضفى هذه المفاتن، وقد لا توجد إلا فى الخيال، على وادى شنيل، لأن جماله مشهور منذ القدم، ووصفه الكتاب المشارقة بأنه جنة، وأجمل وأكبر من وادى دمشق أو كشمير أو سمرقند، ويقول ابن بطوطة وهو رحالة لا يكل من السفر، وطاف بنصف العالم، من أقصى شرق الهند والصين حتى المحيط الاطلنطى : «غرناطة قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها، وخارجها لا نظير له فى

(١) الدف والصاجات من الآلات الموسيقية الشائعة الاستعمال بين العرب. انظر الأبيات التى فى كتاب وصف أفريقية للبكرى، طبعة سلان، ص ٥١.

بلاد الدنيا، وهو مسيرة أربعين ميلا، يخترقه نهر شنيل المشهور، وسواه من الأنهار الكثيرة. والبساتين والجنان والرياض، والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة ومن عجيب مواضعها عين الدمع، وهو جبل فيه الرياض والبساتين لا مثيل لها»[٢].

● غرناطة كما يصفها الأوربيون :

ولم يتعمق المسيحيون جيدا فى تأمل عاصمة آخر دول الاسلام فى شبه الجزيرة الإيبيرية ، ومع ذلك فإن بدرو مرتين Pedro Martin مؤرخ الملكة ايزابيل ، والملك فرناندو، أظهر نفس إعجاب المشارقة، فى رسالة كتبها من غرناطة يقول :

«بين كل المدن التى تشرق عليها الشمس فإن غرناطة فى رأيى أفضلها، لصفاء جوها ورقته فى المقام الأول، وهو أهم ما تحتاج إليه لكى تكون الإقامة فى مكان ما لطيفة ومحببة، فحرارة الصيف ليست مرهقة ، وبرد الشتاء ليس عنيفا، ويمكن أن ترى على الدوام، وأنت فى المدينة، على بعد لايزيد كثيرا عن ستة أميال، الثلج على قمم الجبال، وفى أحايين قليلة تذوب الثلوج فى تلك المرتفعات، وحين يحس المرء أحيانا بقسوة الحر، وفى شهر يوليه الملتهب، تجئ الثلوج مسرعة فترطب المياه، وبها يخفف النبيذ فيصبح باردا، واذا كلب البرد احتمالا، وقسا خلال أيام، فإن الغابات الكثيفة، فى الجبال القريبة، تقدم ملجأ سريعا. ومن جانب آخر فإن أية مقاطعة أخرى ، مثل هذه، فيها تلك المنازه الجميلة، تسلى النفس المهمومة، وتنعش الروح المتعبة».

«إن مدينة البندقية الرائعة يطوقها البحر من كل الجهات، ونصيب ميلانو الغنية واد فحسب، وفلورنسة تطوقها سلسلة من الجبال العالية، وعليها أن تعانى من كل رعب الشتاء، وروما تطحنها بحيرات نهر التيبر، وتزورها على الدوام رياح الجنوب، تحمل لها من أفريقية الروائح الكريهة، والأبخرة العفنة، وقليل من سكانها يمتد بهم العمر فيعيشون شيخوخة ممتدة، ويعانى سكانها فى الصيف من حر

---

(٢) ابن بطوطة، ٢/٣٦٨.

خانق مضن يشل قدرات الجميع، والأمر على النقيض فى غرناطة، لأن نهر الدارو الذى يخترق المدينة، ينقى الهواء، ويصح معه الجو، وتتمتع فى الوقت نفسه بالجبال وواد عريض، ولها أن تفخر بخيرات دائمة متنوعة، وأن تزهو بأشجار الأرز، والتفاح المذهب من كل شكل ونوع، وحدائق بالغة البهجة، وبساتين تنافس ما فى هسبيردس Hespérides[٣]، والجبال القريبة منها تمتد حولها، فى تلال رهيفة، وربى ناعمة تغطيها شجيرات عبقة الرائحة، وغابات صغيرة من الريحان والكروم وباختصار تبدو المدينة كلها، لنضرتها وجمالها، وغزارة مياهها، كما لو كانت الشانزليزيه Champs -Elysées [٤]. ولقد جربت أنا نفسى كيف أن هذه الجداول الصافية، تتدفق بين أشجار الزيتون الوارفة ، والبساتين النضرة، تنعش الروح المتعب، وتهب النفس لونا جديدا من الحياة»[٥].

ولم يكن البندقى الشريف أندريس نفجيرو Andrés Navagero أقل حماسة فى تعبيره، وأقام فى غرناطة فترة طويلة عام ١٥٢٦م، سفيرا لوطنه لدى بلاط كارلوس الخامس، كتب يقول:

«كل الأرض حول المدينة، ما ارتفع منها أو استوى، ويسمونه المرج La vega، لطيفة بديعة، وجميلة فائقة، وفياضة بالخير حيث اتجهت، ولا يمكن أن تكون أعظم مما هى عليه، وكلها مليئة بالأشجار المثمرة، مثل: الكرز، والجوز، والخوخ، والسفرجل، والتين، وبالكاد تستطيع أن ترى السماء اذا كنت بينها، لكثرة أشجارها، وتشابك أغصانها، ويوجد كثير من الرمان اللذيذ، ولا يمكن أن نتصور أن هناك ألذ منه، وأعناب كثيرة، من كل الأنواع المعروفة، وتتكاثف أشجار الزيتون، وتبدو مجتمعة كأنها غابة من أشجار البلوط».

---

(٣) هسبيردس بنات الأطلس فى الأساطير القديمة، وكن ثلاث أخوات، يملكن بستانا، تثمر أشجاره تفاحا من الذهب، ويحرس هذه الثمار تنين له عشرة رءوس، وقد سار هرقل الى البستان، وقتل التنين، واستولى على التفاح الذهبى. (المترجم)

(٤) فى الأساطير اليونانية الرومانية، جنة ظليلة تأوى اليها أرواح الذين عملوا الطيبات بعد الموت، وتطلق الكلمة الآن على شارع رئيسى فى باريس. (المترجم)

(٥) Opus epistolar Patris Martyris Amst. 1670, pag. 54.

« وحول غرناطة، فى كل مكان، بين الحدائق الكثيرة المتناثرة، نرى، وأن شئت الدقة من الأفضل أن نقول لا نرى بسبب كثرة الأشجار ، بيوتا موريسكية كثيرة، قائمة هنا وهناك، لو تقاربت واجتمعت لكونت مدينة ليست أصغر من غرناطة نفسها. ومن المؤكد أن غالبية هذه البيوت صغيرة، ولكن أى بيت منها فيه عينه، وورود وأزهاره وريحانه، وكلها غنية بالزخارف، وتشهد بأن هذا البلد عندما كان لا يزال فى يد المسلمين كان أبهى جمالا مما هو عليه الآن. ونرى كثيرا من المنازل المهدومة، والحدائق المهجورة ليست دونها كثرة، جف زرعها، لأن الموريسكيين يقلون بدل أن يكثروا ، وهم الذين يبنون ويغرسون »[٦].

● المسلمون فى غرناطة :

عندما اجتاح المسلمون شبه جزيرة إيبيريا سريعا، دون تأخير، بعد هزيمة لذريق Rodrigo ملكها، اختارت كل قبيلة منهم إحدى المقاطعات لتسكن فيها، فاختار عرب الشام أن يسكنوا واديى شنيل والدارو لخضرة أراضيها وخصوبتها، وتحيط بها جبال يغطيها الثلج فتذكرهم بجبال لبنان وأرياف دمشق[٧]. وعلى بعد ميل من إلبيرة القديمة أقاموا فى مكان يسمى القصبة القديمة[٨] قلعة حصن الرمان، وأخذ اسم المدينة من اسم الحصن هذا، وكان يسيطر عليها، فسمّيت غرناطة، لأن الرمانة تعرف فى اللغة القشتالية باسم Granada [٩]. وما نعرفه عن المدينة فى أيامها الأولى قليل، وكل ماوصلنا من أخبارها أنها كانت تضم إلى جانب العرب، جالية يهودية وفيرة العدد، وكثيرا من المسيحيين، ولهؤلاء كنائس غير قليلة، بينها كنيسة فخيمة توجد إلى جانب باب إلبيرة.

وفى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى نلتقى باسم الحمراء للمرة الأولى خلال الحرب الدموية التى وقعت بين العرب والمولدين فى كورة إلبيرة، حين حاول

---

(٦) Viaggio fatto in Ispagna, en A.Naugeri iopera. Patav. 1718, Pag. 373.

(٧) المقرى، ١/١٠٩.

(٨) لا يجب الخلط بين هذه القصبة القديمة وقصبة الحمراء، وكانت على الضفة الأخرى لنهر الدارو، على مرتفع فوق باب إلبيرة.

(٩) دوزى، أبحاث، ١/٣٣٦ -مرمول كربخال، ثورة الموريسكيين، الفصل السابع.

كل من الفريقين أن يتخذ من حصن غرناطة ملاذا، وتعرض للهجوم من هذا الفريق أو ذاك، وحين لجأ إليه العرب أخيرا يحتمون به فى مواجهة عدد أكبر من خصومهم وجدوا سوره مثلوما، فأصبح موقفهم سيئا للغاية، ولكنهم صمدوا ، وبذلوا جهدا مضنيا، فوضعوا أيديهم فى بنيانه وسد ثلمه، يقاتلون عدوهم بالنهار، ويبنون سورهم بالليل على ضوء الشموع، وبينما هم كذلك رأوا حجرا يسقط من أعلى السور، ويقع تحت أقدامهم، فرفعه عربى فوجد بطاقة مشدودة إليه، فيها هذه الأبيات التالية، فأخذ يقرؤها على رفاقه :

منـازلهم منهمْ قـفـارٌ بـلاقـعُ تُجارى السَّفا فيها الرياحُ الزعازعُ
وفى القلعةِ الحمراءَ تدبيرُ زيغهمْ ومنها عليهم تستديرُ الوقائع
كما جددت آباؤهم فى خلالها أسنتنا والمرهفات القواطع

هذه الأبيات قُرئت على ضوء الشموع المتراقص أثارت الذعر بين العرب، ووقعت منهم موقع الهواتف بالنذر، وظن عدد غير قليل منهم أن الحجر سقط من السماء، ولكن أخرين أدخلوا الطمأنينةعلى قلوب الخائفين، وأكدوا لهم أن الأعداء هم الذين ألقوا به، وأن الأبيات لشاعر إلبيرة، المحامى عن المولدين، المعروف بالعبلى، عبد الرحمن بن أحمد، وينسب إلى قرية عبلة التى منها أصله، وهذا الرأى حرّك الأسدى شاعر العرب ، محمد بن سعيد بن مخارق، وكان محاصرا معهم، وقام فيهم مقام العبلى فى المولدين ، «وكل منهم يحرض قومه، ويناضل عن مذهبه، ويصف مايرى لقومه على أضدادهم من الوقائع المخزية» فدفعوه الى أن ينافح عنهم، وأن يرد على العبلى فى أبيات تجىء من نفس البحر، وفى نفس القافية فكد خاطره، ولكن الشدة أخبلته وبعد لأى انبعث ببيتين هما :

منـازِلُنـا مـعمـورةٌ لا بـلاقـعُ وقلعتنا حصنٌ من الضيم مانعُ
وفيها لنا عِزٌّ وتدبيرُ نصرةٍ ومنها عليكم تستتبُّ الوقائعُ

عملها فى الليل، ثم اختل وارتج عليه ، ولم يستطع أن ينظم البيت الثالث، وكأنه ما قال شعرا قط، فتشاءم منه العرب، وسيطر عليهم الخوف من جديد، فانعزل الأسدى خجلا، وظل مطرقا، حتى سمع قائلا يقول له، يسمع الصوت ولايرى شخصه :

ألا فادنوا منها قريبا لوقْعه تشيب لها ولدانُكم والمراضعُ

وكان ذلك هو البيت الذى ينقصه، ونظر حوله فلم ير أحدا، فاستبشر خيرا، واقتنع بأنه روح سماوى نطق بهذه الكلمات، ونهض الى رفاقه، وقص عليهم ما وقع له، فاستمعوا له كلهم مندهشين، واعتبروا ذلك معجزة، واقتنعوا بأن الله سوف يهيىء لهم النصر، ثم كتبوا هذه الأبيات فى ورقة، وربطوها الى حجر، وألقوا بها إلى معسكر الأعداء، وملأت الثقة قلوب المحاصرين من جديد، وقاموا بهجومهم، وحققوا أعظم انتصاراتهم(١٠).

إذا كانت الحمراء التى تتحدث عنها الأشعار تقع فى نفس المكان الذى يقع فيه القصر الملكى الشهير، الذى بنى فى عصر تال، أو على الأقل ليس بعيدا عنه، حيث توجد اليوم «الأبراج الحمراء Torres Bermejos»، فثمة شك من الصعب الوصول فيه الى يقين.

● غرناطة عاصمة دولة :

وفى مطلع القرن الحادى عشر أصبحت غرناطة عاصمة دولة مستقلة، فقد اشتعل الصراع بين العرب والبربر، وشغل الأيام الأخيرة من حكم الأمويين ، وفيه رفع رأس زيرى العاهل البربرى، زعيم قبيلة صنهاجة فى درب قريب من قصر قرطبة، وتحرك ابنه زاوى نحو العاصمة الأموية على رأس جيش كبير عطشا للأخذ بثأر أبيه، واستولى فى هجومه على المدينة، وأسلمها للنهب والسلب، ونزع رأس والده من الدرب وأرسلها إلى أهله فى أفريقية لتدفن فى القبر مع بقية جثمان أبيه، وخلال احتضار الخلافة، وامتد أعواما، أقام زاوى إمارة فى الجنوب الشرقى من الأندلس، واتخذ من غرناطة عاصمة لها، ونمت المدينة على نحو ملحوظ تحت حكم حفيده وخلفه حبوس، وكان من أصل بربرى، وتلقى تربية ممتازة، وحاول أن يصطنع لنفسه نسبا عربيا، وواصلت المدينة ازدهارها تحت حكم باديس الطاغية القاسى، والذى خلفه على الإمارة ، فأحاطها بالقلاع وزينها بالقصور، وأقام قصبة جديدة تمتد من القديمة حتى نهر الدارو، واتخذت الأسرة مقر إقامتها فى

(١٠) دوزى، تاريخ مسلمى إسبانيا، ٢/٢١٨.

أعلى القلعة، قريبا من القصبة القديمة[١١]. وكان فى أحد أبراجها تمثال لفارس من البرونز، يدور مع الريح وعليه نقش غامض، يتنبأ بسقوط غرناطة، وطبقا للمقرى كان مكتوبا فيه :

إيوانُ غرناطة الغراء معتبرٌ ... طلسمُه بولاةِ الحال دَوَّارُ
وفارسُ روحهِ ريحٌ تدبره ... من الجماد، ولكنْ فيه أسرارُ
فسوف يبقى قليلا ثم تطرقه ... دهياءُ يخربُ منها الملك والدارُ[١٢]

وتحت حكم باديس وحكم أبيه من قبل، بلغ اليهودى صمويل بن ليفى، وابنه يوسف من بعد، منزلة رفيعة عالية، وكلاهما كان يتمتع بثقافة واسعة مصقولة، وتربية أدبية ممتازة، وعلى مهارة نادرة، وفطنة قادرة، فى التعامل والسلوك، وعرفا كيف يحوزان ثقة الأمير مطلقة، وأصبحت السلطة بكاملها تقريبا بين أيديهم، بينما الحقد يختمر فى أعماق الشعب ضد هذين الكافرين، واللذين كانا يلطعان المسلمين على باب قصورهما المذهبة، تتدفق فيها النوافير بالمياه النقية، ويهاجمان ساخرين عقائد المسلمين المقدسة[١٣].

وما لبث فقيه عربى أن أضرم نار الثأر بين المسلمين بقصيدة تنضح بالمشاعر الملتهبة، فأحال غرناطة الى شعلة من اللهب الحى، ومعها تفجرت الثورة، وأتت على نفوذ اليهود تماما، عام ١٠٦٦م، وفيها ذُبح عدد كبير من اليهود[١٤]، وبعدها

---

(١١) طبقا لمندوثا Mendoza، توجد الآن فى البيازين، قريبا من كنيسة سان كريستوبال.

(١٢) ليس ثمة شك فى أنه التمثال الذى يصفه مرمول فى كتابه «ثورة الموريسكيين»، الجزء الأول، الفصل الخامس، وهو شبيه بما يصفه المقرى، ولو أن مرمول يذكر صيغة للنقش تختلف عن هذه تماما، تقول : «كانت هناك قصور باديس بن حبوس، فى بيوت الديك، حيث ترى برجا صغيرا وفوقه فارس يرتدى ملابس عربية، على صهوة جواد، ومعه قوس، وعليه درع واق، وكلها من النحاس ، ونقش على الدرع يقول : «يقول باديس بن حبوس : إن الأندلسى يجب أن يكون على هذه الصورة»، ومع أية حركة من الهواء يلتفت ذلك الفارس بوجهه، ويسميه الموريسكيون ديك الريح، ويطلق المسيحيون على هذه البيت : «دار الديك».

(١٣) دوزى، أبحاث، ١/٢٩٩.

(١٤) لمعرفة دور اليهود فى غرناطة وما انتهى إليه، انظر.

● الدكتور الطاهر أحمد مكى، دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، ص ٥٨ وما بعدها، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠. والطبعة الثانية عام ١٩٨٣.

● وراجع نص القصيدة كاملا فى : غرسية غومث، مع شعراء الأندلس والمتنبى، ترجمة د. الطاهر أحمد مكى، ص ١٢٥ - ١٢٧، الطبعة الرابعة دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥م. (المترجم)

بزمن غير طويل انتهى حكم الصهناجيين أيضا، وأزاح أميرُ المرابطين **يوسف بن تاشفين الأميرَ عبد الله حفيد باديس** عن العرش، ومثله فى ذلك بقية أمراء الطوائف الصغار فى شبه جزيرة إيبريا، واستولى على قصره، ووجد فيه خزائن طافحة بالثروات الهائلة، ووجد كل غرفه مزينة السقوف، ومفروشة بالسجاد، وغنية بالستائر الغالية الثمن، وحيثما اتجه بصرك يقع على ياقوت يلمع، أو زمرد يبرق، أو ماس يغشى البصر، أو لؤلؤ نادر الوجود، وأكواب من البلور والفضة والذهب، ونال الإعجاب بخاصة عقديضم أربع مئة قطعة من اللؤلؤ، كل واحدة منها تساوى مئة دكادوس Ducados[١٥].

وفى الأيام التى تلت الثورة مباشرة توارت غرناطة من جديد، وعادت مدينة إقليمية، وأوشكت أن تضيع من يد المسلمين خلال الحملة الجريئة التى قام بها **ألفونسو الأول** ملك أرجون، لأن المسيحيين الذين كانوا يقيمون فى المدينة ويعانون من اضطهاد وتعصب المرابطين أرسلوا سفارة سرية إلى ملك أرجون، يحثونه فيها على غزو جنوب الأندلس، ويقول ابن الخطيب : «وتوالت عليه كتبهم ، وتواترت رسلهم ملحة بالاستدعاء، مطمعة فى دخول غرناطة، فلما أبطأ عنهم وجهوا إليه زماما يشتمل على اثنى عشر ألفا من أنجاد مقاتليهم، ولم يعدوا فيها شيخا ولا غرا، وأخبروه أن من سموه، ممن شهدت أعينهم لقرب مواضعهم، وبالبعد من يخفى أمره، ويظهر عند ورود شخصه، فاستأثروا طمعه، وابتعثوا حشفه، واستفزوه بأوصاف غرناطة ومالها من الفضائل على سائر البلاد، وبفحصها الأفيح، وكثرة فوائدها من القمح، والزيتون، وأنواع الفواكه، وكثرة العيون والأنهار، ومنعة قبتها، وانطياع رعيها»[١٦].

ونتيجة لهذه الإثارة قام **ألفونسو الأول** عام ١١٢٥ م بحملة تعمق فيها حتى قريب من غرناطة، وظل معسكرا أمام المدينة مدة عشرة أيام، ولكن ظروفا مواتية اضطرته مع ذلك أن يتنازل عن برنامجه الحربى، وأن ينسحب عائدا من حيث أتى،

---

(١٥) دوزى، تاريخ أسبانيا، ٤/٢٣١.

● الدكادو عملة ذهبية اسبانية قديمة. (المترجم)

(١٦) دوزى، أبحاث، ١/٣٤٨.

وبدل أن تسقط غرناطة فى يد المسيحيين قبل بقية المدن الاسلامية الرئيسية الأخرى ظلت آخر معقل للإسلام فى شبه الجزيرة الإيبرية ،وعندما بدا أن انهيار المسلمين فى إسبانيا ليس ببعيد، حين استولى سان فرناندو على إشبيلية، وخايمه الأول ملك أرجون على بلنسية، وأخذت معاقل المسلمين تساقط واحدة وراء أخرى فى قبضة المسيحيين ، رفع راية الثورة ثلاثة قواد ينتمون الى الأسر العربية العريقة وهم : **ابن هود، وابن مردنيش، وابن الأحمر**، دفاعا عن القرآن، وفى الوقت نفسه للسيطرة على إسبانيا أيضا.

● **بنو نصر فى غرناطة :**

أمّا **ابن الأحمر**، «محمد بن يوسف بن نصر» فهو من أسرة تنتسب فى الخزرج، أحد فرعى الأنصار وأصلهم من أرجونة من حصون قرطبة، ولهم فيها سلف من أبناء الجند ويعرفون ببنى نصر.

ومن المحتمل أن مؤسس هذه الدوولة بنى القصور الملكية التى تحمل اسم الحمراء، واختارها أن تكون محل إقامته، فوق قمة الجبل، كما نراها الآن، على أنقاض قلعة قديمة أخرى، أقيمت فى القرن التاسع الميلادى، وكانت تدعى الحمراء أيضا[١٧]. وهذه الكلمات الأخيرة يجب أن تكون موضع اهتمامنا، لأن اسم الحمراء يطلق على كل مجموعة القصور التى توجد اليوم فوق قمة الجبل الذى يحكم غرناطة، ودون الإضافة السابقة يمكن أن نشك فيما إذا كان ابن الأحمر يملك قصرا هناك. وكان شعاره «لا غالب إلا الله» يلمع على كل جدران القصر، واتخذته أسرته شعارا لها من بعد، وقام خلفاؤه باستمرار بتوسعات متوالية فيه، وتجميله، وتكملته، وزينوا أيضا ربى غرناطة وفجها بالقصور والمنيات، أو البيوت الريفية، وبنوا المساجد والمدارس والمشافى والحمامات والخانات والأسواق. وكان يوسف أبو الحجاج وحكم من ١٣٣٣ إلى ١٣٥٤ م أبرز بنى نصر فى إقامة الأعمال المعمارية العظيمة، وجاءت مبانيه مثلا فى ضخامتها وروعتها فأكسبته شهرة واسعة، وقيل عنه إنه كان يملك سر تحويل المعادن إلى الذهب. وسار محمد الخامس على خطى أبيه، وتعتبر الفترة التى مرت بين إنشاء هذه المملكة وبين وفاته عام ١٣٩٠ أعظم

(١٧) تاريخ ابن خلدون، ٢٧٤/٢، وانظر أيضا: المقرى، نفح الطيب، ٢٩٢/١.

الفترات ازدهارا فى المعمار الغرناطى، وفى هذا العصر أيضا تم بناء الحمراء، كما تشير إليه النقوش التى لا تزال على أبوابها الرئيسية حتى اليوم.

وظلت مملكة غرناطة زمنا طويلا لا تخشى تهديد الأمراء المسيحيين على نحو جدى، لأن هؤلاء كانوا مختلفين فيما بينهم قلوبا وكلمة، ولكن الموقف أصبح مختلفا عندما تزوجت الملكة أيزابيل مملكة قشتالة، ومؤسسة الملكية فى أسبانيا، من فرناندو ملك أرجون، وحشدت كل قوتها لتدمير معقل الإسلام الأخير، إلى جانب الخلافات الحادة والقوية بين أعضاء الأسرة المالكة فى غرناطة، ولعبت دورا هاما فى التعجيل بنهايتهم، أكثر مما فعل سلاح قشتالة نفسه، وأدت إلى ضياع غرناطة. وعندما نصل إلى المرحلة االأخيرة من هذا الضياع نجد أنفسنا قد انتقلنا من وضح التاريخ إلى عالم الأساطير. وعلى نحو ما صيغت القصص والحكايات حول لذريق آخر ملوك القوط فى اسبانيا كذلك كان الأمر فيما يتصل بشخصيات آخر ملوك غرناطة : أبى الحسن وابنه أبى عبد الله أو BOABDIL كما يرد فى المدونات الإسبانية. ويهبط ستار أسطورى على الأشخاص والأحداث، ويصعب علينا كثيرا خلال ضوئها المرتعش، أن نتبين ما هو تاريخ ووقع فعلا.

ومن تلك الروايات الشهيرة، وما أكثر ما تتردد فى صور عديدة، تختلف فى القصص عنها فى الشعر، وتحدثنا عنها فى الجزء الثانى من هذا الكتاب[١٨]، ويكفى أن نذكر هنا الصراع الذى كان قائما بين بنى سراج وأبى عبد الله الصغير، وكيف أعدم هذا أولئكم فى بشاعة وقسوة. ومن الواقع المؤكد أن الملك وابنه كانا يتصارعان فيما بينهما من أجل الاستيلاء على العرش والسلطة المطلقة، وأدى هذا الصراع الملكى إلى إشاعة الفوضى، وانتشار العصابات والحروب الأهلية فى كل أنحاء المملكة، وكان من سوء حظ المسلمين أن هذه الأحداث التعسة وقعت فى أشد أوقاتهم حاجة إلى أوثق ألوان التضامن والوحدة، لكى يقاوموا القوة المسيحية الزاحفة. وومع ذلك فإن أبا الحسن نفسه بدأ الحرب جريئا ومذهلا، واستولى جنوده على قلعة الزهراء، وأعدموا كل حراسها، وبذلك أعطى إشارة البدء فى الكفاح، ويومها تظاهر الفقهاء فى الشوارع يتنبئون بالشقاء القادم، ويتكهنون

---

(١٨) سوف تصدر الجزء الأول والثانى فى مجلد واحد، بعنوان : «الشعر العربى فى أسبانيا وصقلية» قريبا. (المترجم)

بسقوط المملكة، وما أسرع ما ندم الملك على عمله السيئ عندما جاءه الخبر بسقوط الحمة قلعته الحصينة، فمضى ممتطيا صهوة جواده على نحو ما تصوره الأغنية الرومانثية :

ومن باب إلبيرة
حتى باب الرملة.

وعض بنان الندم قائلا :

آى يا للحمة قلعتى الحصينة !
عندما كنت فى الحمراء،
أمرت أن يرفعوا السلاح،
وأن يدقوا الطبول.
وكانت «الترمبيطة» من فضة.

وحينئذ وصل مسرعا شيخ فقيه :

كث اللحية، أبيض الشعر،

وقال له :

جيدا شغلت نفسك أيها الملك الطيب،
أيها الملك الطيب شغلت نفسك جيدا،
قتلت بنى سراج،
وكانوا زهور غرناطة.
ولهذا تستحق، أيها الملك، الجزاء مضاعفا :
أن تضيع أنت والمملكة.
وأن تضيع غرناطة !.

ومع ذلك فإن الضربة الأخيرة قدر لها أن تسقط على رأس ابنه، وبينما كان دم مواطنيه يتدفق عبر شوارع غرناطة، كان المسيحيون خارجها يستولون على القلاع واحدة وراء أخرى. وأخيرا توفى أبو الحسن، ووجد أبو عبد الله نفسه وحيدا على العرش، ولم يبق أمامه إلا أن يدافع عن عاصمته نفسها، وقد أقام على بعد ميلين من أبوابها الملكان ايزابيل وفرناندو فى مدينة سنتافيه Sanita Fe، وأقاماها بنفسيهما.

ولم تكن النتيجة النهائية لهذا الصراع موضع شك أبدا، فقد أظهر أبو عبد الله

ضعفه منذ البدايه، واستسلم أخيرا، وسلّم المدينة فى صباح ٢ من يناير عام ١٤٩٢، ورفع الكاردينال بدرو جونثالث مندوثا الصليب الفضى على أعلى أبراج الحمراء، وكان الجيش الاسبانى الكثيف، والملكان نفساهما، لا يزالون معسكرين فى وديان أرملة Armilla، وعندما ارتفع الصليب المقدس تجرحه أشعة الشمس المشرقة، سجدوا جميعا شكرا للسيد الخالق، وأخذوا يترنمون بقداس Te Deum، وبدأت الجيوش تتقدم نحو المدينة فى بطء، بينما أخذ أبو عبد الله طريقه نحو جبال البشرات حيث تركوا له بعض الضياع، وفوق أعلى ربوة من جبل بدول Padul أرخى عنان فرسه، وألقى آخر نظرة على غرناطة، وفى هذه اللحظة اكتشف امتدادها الرائع، وسط الفج الأخضر، فأثاره المنظر إعجابا، وأرسل زفرة حرى، وتنهد قائلا : «الله أكبر»، وبدأ يبكى فى مرارة، ولكن أمه، وكانت ترافقه، قالت له : ابك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه كالرجال[١٩]. ومنذ تلك اللحظة

---

(١٩) ترد هذه القصة فى دقة متناهية، نقلا عن شيوخ الموريسكيين عند مرمول كربخال فى كتابه «وصف أفريقيا»، جـ ١ ص ٢٤١، والراهب أنتونيو جيبارة Angonio Guevara فى كتابه : «رسائل عائلية»، ورواية هذا الأخير تجىء على النحو التالى :

«وكما عرفت فى منحدر يغيب فوقه منظر غرناطة، وتبدو بلد لكرين Valdelcrin قال لى موريسكى عجوز كان يرافقنى هذه الكلمات فى أعجمية رديئة : إذا أردت أنت، أيها الفقيه، توقف هنا قليلا قليلا، وسأقص لك شيئا عظيما : إن الملك الصغير ووالدته مروا من هنا فى يوم مضى، بعد أن سلم المدينة والحمراء إلى الملك دون فرناندو، ثم رحل الملك الصغير إلى جبال البشرات، وهذه الأرض نص فى عقد الاستسلام على أنها تبقى له يتمتع بها. وكان مع الملك الصغير فى ذلك اليوم الملكة أمه، هى فى المقدمة، وبقية فرسان بلاطه فى الخلف، وعندما وصلوا إلى المكان الذى تحت أقدامنا، أنت وأنا الآن، التفت الملك إلى الوراء لينظر إلى غرناطة والمدينة كشىء لا أمل له فى أن يراه مرة أخرى وأبعد من هذا أن يسترده. وتذكر الملك الحزين، والذين كانوا معه ويضون فى رفقته، النكبة التى حلت بنا، والمملكة الشهيرة التى فقدناها، فأجهشوا جميعا فى البكاء، وبدأوا يشدون لحاهم، وقد علاها الشيب، ويطلبون الرحمة من الله، وحتى من الموت أن ينتزع منهم الحياة. وعندما قالوا لأم الملك وكانت تسبقهم، أن الملك وكل الفرسان توقفوا جميعا، وأخذوا ينظرون إلى الحمراء والمدينة اللتين فقدوهما ويبكون، شحذت فرسها بضربة، وقالت هذه الكلمات : حقٌّ أن يبكى الملك والفرسان مثل النساء لأنهم لم يقاتلوا دفاعا عنها مثل الرجال. وكثيرا ما سمعت ياسيدى، أو عرفته فيما بعد، أو عرفت ما قالته هناك الأم للملك الصغير، أو قالته أمهات الفرسان لأبنائهن، وأنهم قاتلوا هناك بعضهم البعض، أو عادوا إلى غرناطة ليناضلوا ضد المسيحيين».

كان هذا ما قاله لى ذلك الموريسكى.

وذات يوم سألنى الامبراطور سيدى، ولا أذكر سبب زيارتى له، وأثناء الحديث ذكرت له ما قصصت لكم، فقال فى هذه الكلمات : لقد كان الحق كله مع أم الملك فى أن تقول له ما قالت، ولم يكن الحق مع الملك فى شىء مما فعل. ولو كنت أنا هو، أو كان هو أنا، لاتخذت من الحمراء قبرا لى قبل أن أسلمها، ولا أعيش دون مملكة فى جبال البشرات.

أطلق على هذا المكان «زفرة المسلم الأخيرة»، وأيضا اسم؛ «قمة الله أكبر».

وكل ما نعرفه عن الأحداث الأخيرة فى حياة آخر ملوك غرناطة أنه بعد أن أقام مدة قصيرة فى جبال البشرات[٢٠] عبر مع أسرته إلى العدوة الأخرى، أى المغرب، وعاش حتى موته فى مدينة فاس حيث أقام عددا من القصور على الطراز الأندلسى، وكانت بقية من أسلافه لا تزال تقيم فى فاس حتى القرن السابع عشر الميلادى «يأخذون من أوقاف الفقراء المساكين، ويعدون من جملة الشحاذين».

● **سقوط غرناطة واضطهاد المسلمين:**

وهكذا انتهت الدولة العربية فى إسبانيا بعد حكم دام قريبا من ثمانية قرون، وكانت أيام المسلمين الأخيرة على أرض الأندلس قاسية، وطردوا منها أخيرا نهائيا، ويشكل إخراجهم حلقات متصلة من التعاسة، وحين نتأملها الآن يجتاح الألم داخلنا، ونلعن أولئكم الذين تسببوا فى محنة شعب تعس، وآلام قوم مهزومين[٢١]. نعم، كان من الممكن أن تسعدنا الأعمال الحربية التى قام بها

---

(٢٠) وصلتنا الرسالة التى توجه بها أبو عبد الله إلى سلطان فاس، وهى من إنشاء كاتبه (المجيد البارع البليغ أبى عبد الله محمد بن عبد الله العربى العقيلى، رحمه الله تعالى، وسماها بـ «الروض العاطر الأنفاس فى التوسل إلى المولى الأمام سلطان فاس»، وسوف أورد فيما يلى أبياتا من مطلعها فضولا لا لقيمتها الشعرية:

مولى الملوك ملوك الغرب والعجم ... رعياً لما مثلُهُ يُرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن ... جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا ... وأقطع الخطب ما يأتى على الرغم
حكم من الله حتم لامرد له ... وهل مرد لحكم منه منحتم
هى الليالى وقاك الله صولتها ... تصول حتى على الأساد فى الأجم
كنا ملوكا لنا فى أرضنا دول ... غنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صيب ... يرمى بأفجع حتف من بهن رمى

(٢١) لم يجد تاريخ المسلمين الذين ظلوا فى الأندلس بعد استيلاء المسيحيين عليها من التمجيد به، وتسجيله، والاهتمام به، إلا منذ فترة قريبة جدا. فقد كتب المؤرخ الفرنسى دى سيركور de Circour تاريخ المسلمين المدجنين أولا، وبعد ذلك درسه المستشرق الاسبانى العلامة فرانسيسكو فرناندیث أى جونثالث F. Fernandezy Gonz´alez بتوسع وأفاضة وعمق ومعلومات أوفر، فى كتابه: الحالة الاجتماعية والسياسية للمدجنين فى قشتالة. وهى دراسة بالغة الأهمية، ونالت جائزة مجمع التاريخ فى مدريد عام ١٨٦٥ م. وقيل ذلك بأعوام نال الجائزة نفسها كتاب آخر هام فى معرفة هذا الجانب من تاريخنا، ألفه فلورنثيو خانير Florencio Janer، وعنوانه: الظروف الاجتماعية للموريسكيين فى إسبانيا، وأسباب طردهم. ولم يستطع فون شاك مؤلف هذا الكتاب أن يمس هذه النقاط إلا عابرا، ولذلك نحيل القارىء إلى الدراستين المذكورتين. (خوان بالبرا)

الفرسان المسيحيون فى حرب غرناطة وأن نراها شيئا هاما، لو أنهم معها وفوا بما عاهدوا عليه، واتصفوا بالسماحة مع الخصم المهزوم واحترامه، لأن المسيحى الحق، وعقيدته هى الإحسان واللطف والعدالة وصفاء القلب، يحمل فى أعماق نفسه ملمحا من الأصالة الإلهية دون حاجة إلى شواهد من المعجزات. نعم، له أن يأمل فى الانتصار على الإسلام، ولكن الدين الذى يستخدم العنف مع الذين يؤمنون بعقائد أخرى لكى يحملهم بالتهديد والحديد والنار على اعتناق عقائده ومبادئه، يبعد الأنظار عنه، ويصرفها عن الإيمان الحق به، وتتجافاه وقد امتلأت رعبا وكرها[٢٢].

لقد نصت المعاهدة التى سلّم المسلمون بمقتضاها غرناطة على أن تترك لهم مساجدهم، وأن يتمتعوا بالحرية الكاملة فى أداء شعائرهم، وأن يتقاضوا فيما بينهم طبقا لشريعتهم، وعلى يد قضاتهم أنفسهم، ولا يُضيّق عليهم فى التمتع الكامل بكافة ممتلكاتهم، ولا يزعجهم أحد فى تقاليدهم وعاداتهم، ولغتهم وأزيائهم. وخلال الأعوام الثمانية الأولى لم يشك أحد منهم نقض هذا الاتفاق، وأرسل الأسقف طلبيرة، التقى حقا، جملة خرجت من فمه وأصبحت مثلا شهيرا: «هؤلاء المسلمون تنقصهم عقيدة الإسبان على حين ينقص هؤلاء أعمال المسلمين الصالحة». وليصبح الجميع مسيحيين طيبين قام فى الحقيقة بهداية كثيرين للدخول فى المسيحية، وربح القلوب بطيبته، وقوة بلاغته، واستبعد دائما كل محاولة لإدخال المسلمين فى المسيحية بالقهر والغلبة، لأنها وسائل غير مفيدة وغير مشروعة.

وكان على الموريسكيين أن يهنئوا أنفسهم أيضا بالكونت تنديا Tendella حاكم غرناطة، فقد وقف إلى جانبهم، ومع ذلك فإن أشد الهواجس قتامة كانت حينئذ تسيطر على أنفسهم ومشاعرهم، وتذكر الكثيرون منهم أعمال القسوة والغدر التى ارتكبها الملكان الكاثوليكيان أنفسهما، كالأمر باسترقاق كل سكان مالقة المسلمين بلا تمييز، وكانا لا يزالان على قيد الحياة، والأحداث قريبة، وحية فى ذواكرهم، فلم يهدأ لهم بال، ولم يستطيعوا النظر إلى المستقبل بعين الثقة واليقين.

---

(٢٢) علق خوان بانيرا، المترجم الاسبانى على هذه الفترة، فدفع التعصب عن الاسبان، وأنهم لم يكونوا بأفظع من بقية أوربا، ونطول دفاعه أتينا به فى الملحق آخر هذا الكتاب، أنظر الملحق رقم ٥. (المترجم)

● موريسكى يصف مأساة قومه :

وتشهد بما سبق مخطوطة هامة، كُتبت باللغة القشتالية، ورُسمت فى حروف عربية، أو ما اصطلح على تسميته باللغة المستعجمة، Aljamiado، ورأيتها فى المكتبة الوطنية فى مدريد[٢٣]، ويذكر كاتبها وهو مسلم، أنه زار أخاه فى الدين يوسف بن العاص Jos´e Ben´egas فى بيته الريفى، على بعد فرسخ من غرناطة، وهناك تحدث اليه بما يلى :

« أعرف جيدا يابنى أن أحداث غرناطة تثير الحسرة فى قلبك، ولكن لا تندهش إذا تحدثت معك عنها، فلا تكاد تمر لحظة دون أن تهز كيانى، ولا يكاد يمر يوم دون أن تمزق أحشائى، ولم يحدث أبدا أن تعسا بكى حاله، كما بكى أبناء غرناطة مدينتهم، لا تشك فى كلماتى لأننى واحد منهم، وكنت شاهد عيان على ما وقع، ولقد رأيت بعينىّ هاتين أن كل السيدات الكريمات، متزوجات أو أرامل أو عذراوات، تعرضن للاغتصاب، وأن أكثر من ثلاث مئة فتاة بعن فى السوق العامة علانية، وأنا نفسى فقدت ثلاثة من أبنائى، مات الجميع دفاعا عن دينهم، واختطفوا منى زوجى وبنتين، بقيت معى فحسب هذه البنت الوحيدة لتسليتى، وكان لها من العمر حينئذ سبع سنوات، وبقيت وحدى منفيا فى هذا العالم، لتكن إرادة الله فيلطف بى، ويحملنى من هنا سريعا. آه يا بنى ! . . ».

« أنا لا أبكى على ما حدث، إن البكاء لا يحول دون ما كان أن يقع. وإنما أبكى لما سوف تعانونه إذا ظللتم على قيد الحياة، وبقيتم فى الأرض، فى هذه الجزيرة الإسبانية. فليسامحنى الله ببركه قرآننا الكريم، وأدعوه ألا تتحقق نبوءتى، وألا تصبح واقعا أراها بعينى. ولا زلنا ننتظر المزيد من الاضطهاد لديننا، وأخوتنا يسألون : ما حقيقة صوت المؤذن الذى كان يدعو إلى الصلاة؟ ما هى عقيدة أسلافنا؟، وكل ذلك يورث الحسرة والحزن لمن فيه بقية من شعور، ويزداد الألم ويكبر حين يرد فى الخاطر أن المسلمين سوف يصبحون كالمسيحيين، يحتقرون

---

(٢٣) المخطوطة رقم ج ٤٠، وعنوانها :

«Sumario de relaciony ejercicio esperitual, Sacado y declarado Por el mancebo de Ar´evalo»

أزياءهم، ويشمئزون من طعامهم، أو على الأقل لا يحسون بجلال الله الذى يرتضون أعماله، ويحفظون فى قلوبهم شريعته».

● **الكاردينال خمينث يحرق الكتب العربية:**

ولم يبعد الزمن بهذه النبوءة فتحققت كلها!، لأن الحزب المتعصب والمتحمس بين رجال الدين كان قويا للغاية، وعرف كيف يقود حملة إرغام المسلمين على تغيير عقيدتهم، ولم يراودهم تردد فى اختيار الوسائل العنيفة، على نحو ما ساور الأسقف طلبيرة قبلهم من شك فى صلاحيتها.

وقاد الحملة الكاردينال خمينث الشهير، ولم ير خيرا فى استخدام الإقناع مع مسلمى غرناطة، فبدأ يستخدم كل وسائل الإفساد والحيلة لكى يحول بين المؤمنين وبين عقيدتهم فى القرآن، ولم يقف بمحاولته عند الدين فحسب، وإنما تجاوزه إلى الكتب العربية نفسها، ولعل بينها ما لا تربطه بالدين أية صلة. فجمع المكتبات الضخمة فى غرناطة، وكانت قد ورثت كل ما كان فى مكتبات قرطبة وإشبيلية ومدن أخرى سقطت فى يد المسيحيين، وشهدت فى عهدها الإسلامى ازدهارا منقطع النظير، وظن الكاردينال أنه يقوم بعمل جليل عندما يقضى على المخطوطات العربية التى افلتت من فتن البربر الغاضبة والعاصفة، ومن تدمير أوائل الغزاة المسيحيين، وبأمر منه جمعت كل المخطوطات العربية التى أمكن لجنوده أن يستولوا عليها، ووضعت كلها فى كوم كبير وسط الميدان الرئيسى فى المدينة، ولم يشفع لها الموضوع الذى تحتوى عليه، ولم تكن له أية صلة بالقرآن فى أحايين كثيرة، ولم تستطع روعة الخط، ولا فخامة التجليد، أن تجد طريقها إلى عينيه أو قلبه، فتنقذها من هذا المصير المحتوم. وليس لهذا العمل من شبيه فى التاريخ إلّا إحراق مكتبة مدينة الإسكندرية العظيمة، ويقال أن الذى أمر بذلك الخليفة عمر بن الخطاب فى أيام الإسلام الأولى، وكانت عاصفة، وهى تهمة لا دليل عليها، بل على العكس يراها جميع المؤرخين تقريبا ضربا من الأساطير. ولكن مما لا شك فيه أن كبيرا من رجال الدين المسيحى، هو الكاردينال ثيسنيروس خمينث، قدم إلى النار فى عصر نهضة العلوم أكثر من مئة ألف مخطوط عربى، تحوى قرائح الشعراء والعلماء العرب، وثمرة ثمانية قرون من دراسة واسعة، وثقافة مبدعة، وفكر متميز، ولم يعف إلا عن عدد محدود من كتب الطب فحسب،

شارع زفرة Zafra ويبدو فى أعلاه أحد ابراج الحمراء

وللمبالغة فى تمجيد هذا الرجل المقدس، يقول أنصاره والمعجبون به، بأن الكتب التى أمر باحراقها بلغت مليونا وخمسة آلاف مخطوط أو تزيد[٢٤].

● **المسلمون يقاومون تنصيرهم بالقوة :**

أدى الأسلوب العنيف الذى سلكه الكاردينال خمينث لكى يحقق خطته الرامية إلى إرغام المسلمين على اعتناق الكاثوليكية إلى ثورة فى حى البيازين، وهو الحى

(٢٤) روبلس، ثورة الموريسكيين، ص ١٠٤. وانظر أيضا : موجز حياة ثيسنيروس.

الذى كان يسكنه الموريسكيون وحدهم فى المدينة، وعندما علم الملكان ايزابيل وفرناندو بما حدث، نددا بقوة بحماسة الأسقف الدينية التى زادت عن حدها، غير أن الكاردينال عرف بعد أن أخمدت الثورة كيف يهدئ كدر الملكين فى بلاغة سوفسطائية. ومع أنه لم يحصل على موافقة صريحة، لكنه أيضا لم يجد أية معارضة واضحة فى تحقيق غاياته بهذه الأساليب، وهكذا أصدر قراره وحيدا، وعلى مسئوليته، بأن الموريسكيين ارتكبوا جريمة الخيانة العظمى، ورحمة بهم عليهم أن يختاروا بين الهجرة وبين أن يعتنقوا الكاثوليكية. وحينئذ اختار كثيرون من هؤلاء التعساء أن يفارقوا وطنهم وديارهم، ولم يرد الآخرون، أو لم يستطيعوا، أن يتركوا أرضهم، فخضعوا للقدر، وعمدوا قسرا.

وهكذا نقض الإسبان علانية المعاهدة التى صالحوا عليها المسلمين فى مملكة غرناطة، على حين كانوا الموريسكيون يفون تماما بكل ما يعدون به. وقد حاول الكونت تنديا أن يهدىء من ثورة البيازين، فوعد الساخطين بأن يقضى على أسباب شكاواهم، وأن ينفذ شروط التسليم بدقة، وليبرهن على عزمه فى تنفيذ ما وعدهم به ترك فى أيديهم زوجه وابنان له، ولكن. . بدل أن يصادق الملكان على ما وعد به الكونت وصل القرار الذى أشرنا إليه من قبل، ومعه مزقت شروط التسليم، وديست كلها بالنعال، ومع ذلك رد سكان البيازين إلى الكونت الرهائن التى تركها فى أيديهم. ويبدو سلوك المسيحيين أكثر وضوحا فى وحشيته، وأشد إثارة للغيظ، حين نتأمل أنهم أنفسهم تمتعوا دائما تقريبا تحت الحكم الإسلامى بكل حريتهم الدينية، باستثناء حالات نادرة حين أثاروا هم أنفسهم المسلمين ضدهم، أو تحت حكم البربر، ولم يحدث أبدا أنهم عانوا الملاحقة والتضييق[٢٥].

---

(٢٥) يحاول بعض الكتاب المحدثين إيجاد عذر أو تبرير للاضطهادات العنيفة التى قام بها الإسبان، بأن يقدموا العرب على أنهم قوم متعصبون، ويذكرون المذابح التى تعرض لها المسيحيون تحت الحكم العربى، ولكن المقارنة بين أرقام هؤلاء والذين ذهبوا ضحية محاكم التفتيش تبرهن على أن عدد المسيحيين كان صغيرًا جدًا. ويبرهن التاريخ فى الدراسة الرائعة التى قام بها دوزى (٢/١٠٤)، بعد أن راجع الوثائق الخاصة بهذه القضية، أن أحكام الموت كان سببها المسيحيون أنفسهم، فهم يهمون إلى الاستشهاد أخذوا يسبون الرسول. والدليل الذى لا يجحد على حقيقة ما تمتع به المسيحيون من حريات تحت الحكم الإسلامى، أن الرعايا المسيحيين فى عهد الإمارة الإموية، وفى عهد ملوك الطوائف من بعدهم، كانت لهم كنائسهم وأديرتهم وقساوسهم، ويمارسون طقوسهم الدينية دون أدنى متاعب، ويدقون حتى نواقيس كنائسهم. أما النشائم التى يوجهها لئام الناس، ويوجد مثلها فى كل البلاد وبين كل الأديان، فلا [illegible] منها كثيرًا. وسواء موقفهم تحت حكم المرابطين، والموحدين بعدهم، وحكموا الأندلس

من الواضح أن الإسلام لا يتسامح فيما يتصل بالمبادئ، والجهاد وحمل السلاح من أركانه الجوهرية التى دعا إليها، ولكنه عامل المهزومين فى تسامح حلو، وبينما كانت أوربا تغتال اليهود فى كل مكان، وتحرقهم أحياء، وجدوا فى الأندلس الاسلامى حريتهم كاملة، وحين انتصرت المسيحية فى إسبانيا حدث لهم العكس تمامًا. إن الحب والدماثة من أولى وصايا مؤسس المسيحية، ولكن المسيحيين حيثما اتجهت لا يعملون بتلك الوصايا إلا حين يكونون ضعفاء فحسب. وطبعًا يمكن أن نوجه الاتهام الخطر إلى كل الجاليات المسيحية بأنها، حتى وهى بعيدة عن السلطة تماما، حين تتعصب ضد كل من يفكرون بطريقة تختلف عنها، إنما يتنكرون ويعارضون روح المبادئ التى يؤمنون بها.

وعندما أكره المسيحيون مسلمى غرناطة على اعتناق الكاثوليكية كرها اختفى اسم الإسلام من تاريخ إسبانيا، وحل مكانه اسم الموريسكيين[٢٦] ومن الواضح أن اعتناقهم الكاثوليكية كان فى البدء، وظل كذلك فيما بعد، مجرد إجراء ظاهرى فحسب، وحافظوا بعامة على عقائدهم التى تشربوها فى سنيهم الأولى، فى حسم بالغ وتصميم عنيد. وحتى اليوم، من النادر جدًا أن نجد بينهم من يغير دينه وأصعب من هذا بكثير أن يعتنق المسيحية. أولا لأن الايمان بواحدانية الله يمثل الركن الأول فى الإسلام، والقول بأن لله ولدًا كفر صراح وأدانه القرآن فى سورة مريم[٢٧]. وثانيًا لأن عقيدة التثليث تبدو مناقضة لجوهر الإسلام فى دعوته إلى

= أثر حركة قام بها الفقهاء المتعصبون لدعوتهم. ولم يحدث أبدا أن تعرض المسيحيون على الأرض الإسبانية لأية ملاحقة من المسلمين، يمكن أن تقارن ولو من بعيد، بالطريقة المضنية التى اتبعت فيما بعد مع المسلمين المهزومين.

(٢٦) وهكذا يبدو الفرق واضحًا بين كلمتى مدجنين Mudejares وموريسكيين Moriscos، وفيما يبدو يجب أن نفهم أن لفظ موريسكى يطلق على كل مسلم بقى فى أسبانيا بعد سقوط غرناطة، واعتنقوا الكاثوليكية طوعًا أو كرهًا. أما كلمة مدجن، وكانت مستخدمة فى العصور الوسطى، فتطلق على المسلمين الذين أصبحوا رعايا الملوك المسيحيين الأسبان، طبقًا لشروط التسليم أو المعاهدات، واحتفظوا بحقهم فى أن يظلوا مسلمين، وأن يمارسوا طقوسهم الدينية أحرارًا، وأن يتقاضوا فيما بينهم طبقًا لقوانينهم. وثمة اختلاف بين المستشرقين الاسبان حول أصل كلمة مدجن، لا نستطيع نحن الذين لسنا منهم أن نحيط به، ولكن لا نستطيع أن نكتم اعجابنا من أن اللغة العربية تتيح مجالا فى كل خطوة لمثل هذا الخلاف وقد حاول فرناندیث، وجو نثالث، ومولر، وانجلمان، ودوزى، وآخرون أن يبحثوا عن الأصل الحقيقى لكلمة مدجن، واختلفوا فيما بينهم، ودافع كل واحد منهم عن فكرته، ومع كثرة الآراء الواردة من الخير ألا نقبل أيا منها، وأن نرفضها كلها. (خوان بالبرا)

(٢٧) يشير إلى الآيتين رقم ٨٨ و٨٩ : «وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا لقد جئتم شيئًا إدًا» (المترجم)

وحدانية الله، حتى أنهم يتهمون المسيحيين بالشرك، وإذن فباستثناء التعميد، وأكرهوا عليه قسرًا، وتلقوه بالقوة، ظل الموريسكيون أوفياء لعقيدتهم الإسلامية فى السر، وعلينا أن نأخذ فى الاعتبار أن محاكم التفتيش فى غرناطة وجدت بالكاد حقلا جد مجدبًا[٢٨].

وفى عام ١٥٢٦ م دخلت المحكمة المرعبة عاصمة أبى عبد الله، وكانت حتى ذلك الوقت ترسل أشعتها الصاعقة من بعيد. وحينئذ ظهر قانون يمنع الموريسكيين من استخدام لغتهم العربية فى الكتابة أو الحديث، أو استخدام ألقابهم العربية، أو ارتداء أزياءهم القومية، وبعد قليل صدر القرار الذى يحرم استخدام الحمامات، وكانت ضرورة عند المشارقة، أو السمر والرقص الليلى، أو الغناء على الطريقة العربية، أو استخدام الآلات الموسيقية الموريسكية، وطبق عليهم بمنتهى القسوة، وكان القسس ينادونهم بأسمائهم اسمًا وراء آخر، ويهددون من يتخلف منهم عن حضور القداس الكاثوليكى فى الكنيسة، وهو أمر كان الموريسكيون يمقتونه ويرفضونه بقلوبهم، وكانت النتيجة الحتمية لهذا العنف أنهم التصقوا بعقائد آبائهم بقوة أكثر، وفى تصميم حاسم. وكان القسس يقرأون فى كل عام فى الكنائس قرارًا يعرف بأنه «بلاغ» وفيه تأمر محكمة التفتيش المسيحيين، أو الذين دخلوا المسيحية حديثًا بأقسى العقوبات إذا لم يبتعدوا عن كل ملمح يمكن أن يثير الشبهة بأنهم مسلمون، وعلى الرغم من هذا، ومن استخدام جيش من جواسيس المحكمة المقدسة يحيط بالموريسكيين ويتابعهم، فإن هؤلاء ظلوا على عقيدتهم فى صمت لم يتزحزحوا عنها قيد أنملة، والذين ارتدوا ظاهرا قناع الكاثوليكية فى حياتهم كانوا يلقون بها أرضًا، على الأقل لحظة الموت وهم يودعون الحياة، ويعترفون علانية بأن «لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله» مما كان يثير الألم والغيظ فى نفوس رجال الدين الكاثوليك. وهكذا امتلأت القيود الحديدية، واستخدمت كل وسائل الارهاب والتعذيب، حتى بدا أنه لم يبق فى غابات الاندلس حطب كاف لإحراق من يؤمنون سرًا بالقرآن.

(٢٨) كتب جيوفانى نجرو كاتب سفير البندقية رسالة من غرناطة يخبر فيها بقدوم أعضاء محكمة التفتيش، يقول: أقاموا لنا مأدبة حافلة وجميلة، انظر:

Inscrizio inveneziane recolte de Cigogna, fascicolo XXIL, Pag 339.

● آخر مرثية أندلسية نعرفها :

بقى لنا حتى اليوم، عن زمن التعاسة والشقاء هذا، مرثية أندلسية ربما كانت آخر قصيدة شعر عربية ولدت على أرض إسبانيا. لقد أودعنا هذا الكتاب[٢٩] من قبل قصائد كثيرة استلهمت الحفلات، أو الحب، أو النبيذ، أو أنشدت تحت قباب قصور الخلفاء احتفاء بانتصاراتهم وإشادة بعظمتهم، وفيما أرى يجب ألا نهمل القصائد التى نظمت على وقع القيود فى الأيدى والأرجل، وأنات التعساء يطوقهم لهيب النيران، وهذه القصيدة مثل لها، وتبدو كما لو كانت صلاة جنائزية لشعب يموت[٣٠] :

« بسم الله الرحمن الرحيم : قبل الحديث وبعده نحمد الله دائما، مالك الكون، إله الناس، وهو أحكم الحاكمين، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الله الذى أنزل الحكمة وعلمنا ما لم نكن نعلم والذى خلق الناس، وقدر الآلام، يعفو عن الذنب، ويهدى إلى الخير، الله جل جلاله، والذى خلق الشجر، والأرض دحاها، وجعلها للناس مقرًا، الواحد الأحد، الفرد الصمد، ليس كمثله شيء يرزق الناس ويسوق لهم المطر، ويهيئ لهم ما يقيمون به أودهم، الله الحافظ، الملك الأعلى، لا أول له، الذى على العرش استوى، يفعل ما يشاء ويصنع ما يريد، وعلم بالقلم، وخلق آدم وأنقذه، وله العظمة والجلال. وخلق الناس والأولياء واختار من بينهم الأنبياء، وختمهم بسيد المرسلين ».

---

(٢٩) يشير إلى الجزء الأول والثانى من هذا الكتاب، وسوف يصدران قريبًا فى مجلد واحد بعنوان « الشعر العربى فى أسبانيا وصقلية ». (المترجم)

(٣٠) مرمول كربخال : ثورة الموريسكيين، الكتاب الثالث، الفصل التاسع، وترجم شاك هذا الشعر من القشتالية فى شعر ألمانى بتصرف. ولم أره حسنًا أن أترجمه فى شعر قشتالى نقلا عن شاك، أو أن أصوغها شعرًا نقلا عن مرمول، وإنما نقلتها هنا كما وردت فى تاريخ مرمول، رغم ركاكة أسلوبها. (خوان باليرا)

● لم أستطع العودة إلى النص الأصلى لهذا الشعر وأنا فى القاهرة، ولم تسعفنى المصادرة الاسبانية التى فى مكتبتى الخاصة، لأنه لا يزال مخطوطًا فيما أرجح، ويتطلب الأمر العودة إلى النص العربى نفسه، فقد نقله مرمول فيما يبدو نثرا، ويبدو أن معرفته بالعربية كانت متواضعة، وأن لغة النص الأصلية كانت هابطة، لأن النص الاسبانى الذى بين يدى ردئ للغاية، جمله منفصلة لا رابط بينها، كما لو كان ثرثرة شفوية، فلا يوحى بأنه ترجمة لقصيدة أبدًا. ولعلى أعود إلى القضية برمتها، قضية الموريسكيين فى قابل الأيام. (المترجم)

«وبعد تمجيد الله الذى فى السماء وحده، وتقديس اختياره، وببركة أوليائه، أبدأ فى ذكر تاريخ ما حدث فى الأندلس، وصنعه العدو فيه، طبقًا لما ترونه مكتوبًا: الأندلس شيء مشهور يذكر فى كل العالم، يطوقها اليوم الإلحاد ويحيط بها من كل الجهات، ونحن بينهم خاضعون كغنم ضالة، أو كفارس على حصان بلا شكيمة، لقد ارعبونا بقسوة وعلمونا النفاق والخداع، حتى أن المرء يتمنى الموت للألم الذى يشعر به. ووضعوا اليهود على رءوسنا، وليست لهم ذمة، ولا يوفون بعهد ولا يحترمون كلمة، وكل يوم يبحثون لنا عن أكاذيب جديدة، وعن حيل مخبأة، ويصنعون معنا كل ما يوهن العزيمة، ويحتقروننا وينتقمون منا، ويتدخلون فى شريعة أهلنا، ويرغموننا على عبادة التماثيل والصور معهم، ويضايقوننا، دون أن يجرؤ أحد على الكلام[٣١]».

«وما أكثر الأشخاص الذين يتعرضون للمضايقة بين الكافرين! يدعوننا بالنواقيس لنعبد الصور والتماثيل، ويأمروننا بأن نطيع شريعتهم المثيرة لنا، وأن نذهب إلى الكنيسة حيث يجتمعون، ويقف أحد الوعاظ، ويتحدث عن الخمر ولحم الخنزير فى صوت كنباح الكلب ويقيمون القداس وهم يشربون النبيذ، وتستمع إليه يقول فى تواضع: هذه هى الشريعة الصالحة، وستعرف فيما بعد أن رئيس القسس فى الكنيسة وأعظمهم تقديسًا، لا يعرف الحلال من الحرام، فإذا انتهى من موعظته خرجوا، بعد أن يكونوا قد وقروا كل الوقار من يعبدون، ويذهبون وراءه دون أن يخشوا خجلا. يصعد رئيس الكنيسة على المذبح، ويرفع قطعة من الخبز يراها الجميع، وتسمع الخبط على الصدور، ثم يدق ناقوس

---

(٣١) على الرغم من الحرية الواسعة التى كان يتمتع بها اليهود فى الأندلس الاسلامى، مما يسر لثقافتهم أن تزدهر، وأدى إلى ظهور أعلام منهم فى عالم الفكر والترجمة، كانوا يعانون من اضطهاد لا مثيل له فى الجانب المسيحى، مما دفع بكثيرين منهم إلى اعتناق الكاثوليكية، وبلغ بعضهم مكانة متقدمة حتى بين رجال الدين الكاثوليك انفسهم، ولكنهم فى كل الأحوال لم ينسوا أنهم يهود، وإن تجاوزوا عن عقيدتهم، وبعد سقوط دولة الإسلام بأربعة شهور واثنى عشر يومًا أصدر الكاثوليكيان إيزابيل وفرناندو قرارًا فى ١٤ مايو ١٤٩٢ بطرد اليهود نهائيًا من الأندلس، وهو قرار لم يشمل الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية من قبل، ولأن عددًا كبيرا من هؤلاء اليهود الذين تكثنكوا كانوا يعيشون بين المسلمين، ويجيدون اللغة العربية، فقد اتخذ منهم الحكام ورجال الدين الكاثوليك سياطًا يجلدون بها المسلمين. وفيما بعد تبين الأسبان ما هم عليه من نفاق، فصدر ما يعرف بقانون «نقاء الدم»، وكان على كل إسبانى يتولى منصبًا عامًا، أن يثبت بمقتضاه أنه لا تجرى فى عروقه دماء يهودية. (المترجم)

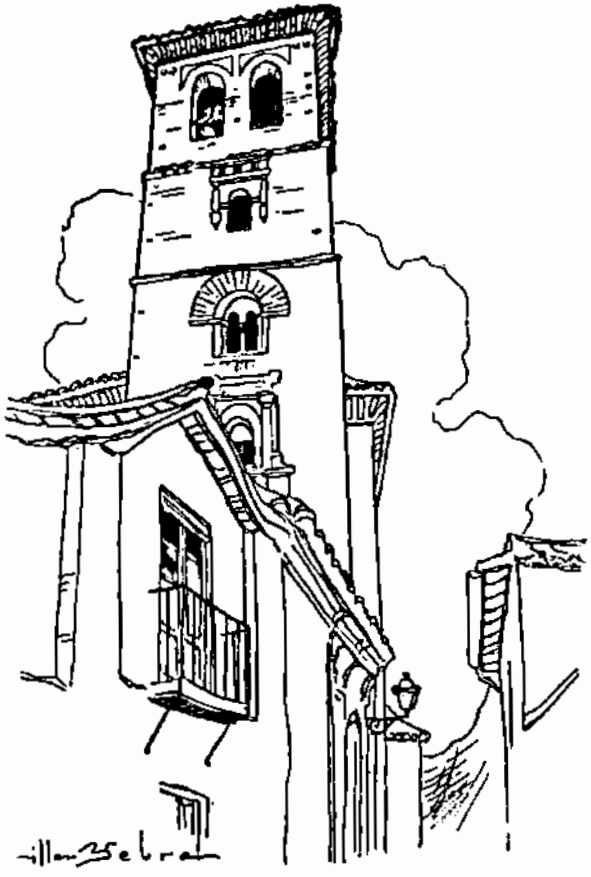

مئذنة مسجد البريانة Alburiana وقد أصبحت برج ناقوس
بعد أن هدم المسجد وأقيمت على أنقاضه الكنيسة !

الانتهاء. ولهم قداسان، أحدهما يُغنَّى فيه والآخر للصلاة وكلاهما مثل الطل فى السحاب. ومن يحضر القداس يجد أنهم ينادون أسماء من ورقة، لا يبقى شاب ولا شيخ لا ينادونه. وتمر أربعة شهور ويذهب عدو كبير القسس إلى « بيت الريبة » يطلب العفو، ويمر من باب إلى باب معه حبر وورق وقلم، ومن تنقصه الوثيقة عليه أن يدفع غرامة عليها « ربع فضة »، وأخذ الأعداء بنصيحة : على الجميع أن يدفعوا، الأحياء والأموات، وكان الله فى عون من ليس عنده ما يدفعه ! . سوف يحملونه وقد مزقت بدنه السهام ! »

«لقد نقضوا الشريعة بلا سبب، ويعبدون التماثيل وهم جالسون ويصومون شهرًا ونصف، وصومهم كصوم البقر، فهم يأكلون فى منتصف النهار، ولنتحدث إلى قسيس «الاعتراف»، وبعد ذلك إلى قسيس «القربان»، وبهذا تتم شريعة الكافرين، ومن الضرورى أن نقوم بهذا، لأنه يوجدبينهم قضاة قساة يأخذون مزارع المسلمين، ويجزونهم كما يجزّ القصاص القطيع، وآخرون بينهم يفحصون ويتمعنون ويستبعدون كل القوانين. وما أكثرالذين يأخذون الأمر على عاتقهم ويعملون بما يحمله لهم الجواسيس، وهم ينتشرون بين الناس فى كل مكان وكل لقاء! وليس بوسع المرء منا أن يشكر الله بلغته دون أن يفلت منهم، وسوف يكون مآله الضياع! وعندما تتاح لهم الفرصة سوف يرسلون الدليل وراءه، وسوف يجده ويعتقله حتى ولو كان على بعد ألف فرسخ، ويلقون به فى السجن الكبير ويعذبونه ليلا نهارًا قائلين له: تذكر!، ويبقى المسكين مفكرًا، والدموع تملأ عينيه، ومن قيد إلى قيد يقولون له: تذكر! وليس له من قوت إلا الصبر، ويضعونه فى قصر مرعب، يبقى فيه زمنًا طويلا، ويفتحون له ألف خضم وخضم، لا يستطيع أمهر سباح أن يخرج منها سالمًا، لأنه فى بحر لا ساحل له».

«ومن هناك يحملونه إلى غرفة التعذيب، ويقيدونه ليعذبوه، ويظلون يعذبونه حتى يفتتون عظامه، وبعد هذا يعدون حفلة موسيقية فى ميدان «الحطابين Hatabin»، ثم يقيمون منصة تشبه منصة القضاء، ومن سيطلق سراحه يلبسونه رداء أصفر، أما الآخرون فيحملونهم إلى النار مع تماثيل وصور مرعبة. ولقد أدخل علينا هذا العدو الغم بأساليب مريعة، وأحاط بنا كالنار من كل جوانبنا. ونحن نعانى من القهر والظلم على نحو لا يطاق ولا يحتمل. وفى أعيادهم وأيام الآحاد نبقى فى بيوتنا، ونصوم يومى الجمعة والسبت، وقد ازداد قوادهم وحكامهم شرًا، وكل واحد منهم يزعم أنه يعمل على توحيد الشريعة والقانون، ويضيفون إليها ما يشاءون، ويعلقون سيفًا بتارًا، ويخبروننا كتابة باليوم الذى يبدأ فيه العام الجديد فى ميدان باب البنت Bib el Bonut، وهم يوقظون النائمين، الذين عليهم أن ينهضوا من نعاسهم فى لحظة محددة، لأنهم يأمرون بأن تظل كل أبواب بيوتنا مفتوحة. وحرموا علينا الملابس العربية، والحمامات والجلوس أرضًا

شارع شعبى فى حى البيازين وبقايا مئذنة مسجد!

على طريقة العرب!».

«لقد فعل العدو كل هذا ووضعنا فى أيدى اليهود يصنعون بنا ما يريدون، دون أن يتهم أحدًا من المسيحيين بالخطأ، وكان رجال الدين والرهبان جميعا فى قمة السرور، لأن الدين أصبح واحدًا للجميع وأنهم وضعونا تحت أقدامهم، وذلك هو ما اتسع له وطننا، كأنهم يرون فى الكفر شرفًا يضفونه عليه. والعدو حانق علينا، وشرس معنا مثل تنين، وكلنا جميعا فى قبضته مثل اليمامة فى مخلب الباشق، ولأنهم سمحوا لأنفسهم بأن يصنعوا كل هذه الأشياء معنا، قررنا أن نقضى عليها، وأن نبحث عن الوسائل عند المنجمين، وأن نطلب الرأى عند القضاة، لنرى ما إذا كان ممكنا أن نجد فى القانون ما يحمينا ويريحنا، وقد قال لنا الرجال الممتازون الذين اهتموا بالبحث عن أصل بلوانا، اننا مع الصيام ننتظر النجاة، وأن أحزاننا سوف تجعل الشبان مع الوقت يشيبون قبل زمانهم، ولكن بعد هذه المحنة سوف يجىء الفرج حتمًا، وأن الله سوف يرحمنا، وهذا ما على أن أقوله ولو أن الحياة كلها شرور لا تنتهى، ولهذا أناشد فضائلكم، ياسادة: لا تمسوا صلاتى، وإلى هنا هذا ما تبلغه كل قوتى، ولا تحتقروا سعايتى، ومن يقرأ فى هذه الأبيات مرثيتى فليدع الله أن يدخلنى جنة رضوانه»[٣٢].

● ثورة الموريسكيين:

وهذه القصيدة تهدف إلى استمالة المسلمين فى شمال أفريقية، ومثلها الرسالة التى تطلب المساعدة مباشرة، واكتشفتها جواسيس الحكومة الاسبانية مع شخص يدعى ابن داود، عندما أراد أن يعبر إلى الشاطئ الآخر من البحر الأبيض المتوسط، والموقف اليائس الذى عرضنا له من قبل أثار الموريسكيين ودفع بهم إلى الثورة، ولإثارتهم على نحو أشد شاعت نبوءات تعلن عن عودة الامبراطورية الأندلسية،

(٣٢) يشير مرمول إلى أن الونسو دل كاستيو ترجم هذه الأبيات، ورسالة معها، ويفهم منها أن ما قيل عن ثورة الموريسكيين حقيقى، وكان على الموريسكى ابن داود أن يحمل الرسالة والشعر إلى بلاد البربر، ويطلب المساعدة من المسلمين فيها. ولكنه اعتقل فى أدرة، ووجدوا هذه الأوراق معه، وقد أرسل المركيز دى موندخو هذه الأوراق وترجمة لها إلى الملك. (خوان بالبرا)

وتحرير المستعبدين من أتباع الرسول، وخاصة بين سكان منطقة جبال البشرات، وكلهم تقريبًا حافظوا على عقيدتهم الإسلامية. وفى كتمان شديد تجمع الثائرون، بعضهم من سكان حى البيازين، والآخرون من رؤساء المسلمين فى مقاطعة البشرات، واختاروا لهم ملكًا، شابًا فى الثانية والعشرين من عمره، يدعى ابن أمية، وينحدر من نسل خلفاء قرطبة الأمويين. وطبقًا للتقاليد العربية القديمة تلقى الملك الجديدة البيعة الدينية، وهو يرتدى عباءة من الأرجوان، وتوجه والذين معه نحو القبلة، وسجدوا تحت أربع رايات تتجه نحو جهات العالم الأربع، ثم صلى بهم، وأقسم أن يعيش أو يموت دفاعا عن دينه ووطنه وشعبه. وحينئذ نهض الملك، ورمزا لطاعة عامة الناس له ألقى واحد من الحاضرين بنفسه أرضًا، وباسم الجميع قبل الأرض التى وطئتها قدماه، وعين الملك قاضيا للجماعة، وحمله آخرون على أكتافهم، ثم رفعوه قائلين : «**نصر الله محمد بن أمية، ملك غرناطة وقرطبة**»!

وما أسرع ما اشتعلت الثورة حية متوهجة، وغطى الموريسكيون المسلمون كل منطقة البشرات، وارتفع صوت المؤذن عاليًا من فوق المنارات : «لا إله إلا الله محمد رسول الله». ولكن نهاية هذه المحاولة اليائسة التى استهدفت إعادة الدولة الإسلامية كانت سابقة لأوانها، وبدل أن نذكر كيف أخمدت هذه الثورة فى طوفان من الدموع والدماء نؤثر أن نرخى الستارة على هذه المأساة. ولقد استولى خوان دى أستوريا على مدينة جليرة Villa de Galera وأعدم كل سكانها ذبحًا دون تمييز بين رجل وامرأة، أو بين عجوز وطفل. وبعد أن سقطت بقية القلاع القوية فى سلسلة جبال البشرات، فى يد الإسبان، وجلها سقط بسبب الخيانة، وزعوا كل الموريسكيين الذين استسلموا فى مقاطعة غرناطة على بقية المقاطعات، أما الذين اختفوا فقد اصطادوهم كما لو كانوا وحوشًا، وقدموا إلى المقصلة لذبحهم، وكثيرون استطاعوا أن ينجوا بأنفسهم عبر البحر، ولكن حب الوطن ردهم إلى الأندلس من جديد، حيث سقطوا بين مخالب محاكم التفتيش، وقدموا مشاهد تدعو إلى العظة والاعتبار، فى محاكمات الإحراق بالنار علنا، وقام بها المخلصون جدًا للكاثوليكية. وكان موقف الذين حُملوا إلى مقاطعات أخرى داخل إسبانيا

أسوأ من الرق نفسه، فالحديث باللغة العربية أو العزف على آلة موسيقية مما كان يستخدمه العرب وغيرها، جريمة يعاقب عليها بالسجن مدى الحياة. ورغم كل هذا يعترفون بأن هذه الوسائل جميعها لم تبعد بالموريسكيين كثيرًا عن عاداتهم القديمة، ولم تستطع إرغامهم على أن يتحولوا عن دينهم مخلصين، وإذا حملوا موريسكيا إلى السجن لم يكن يقاوم، وعادة يقبل التصالح معهم أملا فى الحرية، ولكن إذا بلغ النهاية، وحانت لحظة الاحتضار، وكان على أبواب الآخرة، يرفض الكاثوليكية فى صوت حاسم واضح، ويموت على الإسلام، ويلقى الله وهو يردد بين شفتيه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

ومن ثم بدا للحكومة الإسبانية واضحًا أن الدين الذى أتى به محمد لا يمكن استئصاله من شبه الجزيرة إلا مع آخر نفس يخرج من آخر موريسكى، وحينئذ توجه تقى من كبار رجال الدين الكاثوليكى (!!) بمذكرة إلى الملك يؤكد له فيها أنه على قناعة كاملة بأن قتل كل الموريسكيين مناسب ومفيد ومباح[٣٣]، ولكن أسقف بلنسية، ولم يكن بأقل تقوى ولا تدينا من مواطنه ذاك، كتب أيضًا تقريرًا آخر أوضح فيه أن الواجب المقدس يفرض عليهم القضاء على جميع الكافرين أى المسلمين، وأكد على أن كل المصائب التى انصبت على رأس إسبانيا خلال نصف القرن الماضى كانت عقابًا عادلا من السماء على التسامح الزنديق الذى أتبعته الحكومة مع الموريسكيين. ويمضى مستنتجًا من كل هذا أنه إذا كان غير عملى أن يقتل الملك مئات الألوف منهم، فمن الواجب عليه أن ينفيهم جميعًا، وإذا بدا له فمن الأفضل أن يحكم عليهم بالسجن المؤبد، أو بالأشغال الشاقة فى مناجم أمريكا اللاتينية، ومثل هذا الحل يعد تساهلا معهم إلى حد كبير، لأننا إذا نظرنا إلى الأمر فى جدية فإنهم يستحقون الموت جميعًا[٣٤]. وتلا هذا التقرير طرد جميع الذين ينحدرون من أصول إسلامية فى حكم الملك فيليب الثالث، وعندما فقدت اسبانيا أنشط وأمهر فلاحيها تحولت إلى صحراء قاحلة لا تصلح إلا موطنًا للكاثوليك المحافظين.

---

(٣٣) Bleda, Defensio fidei, Pag. 277

(٣٤) خوان هينث، حياة وفضائل خادم الله الموقر دون خوان ريبيرا، روما ١٧٣٤، ص ٣٦٧ و٣٨١.

وبعد أن محيت آخر آثار الإسلام فى شبه الجزيرة، أصبح أسطورة كل ما يمكن أن يقال عن المسلمين، أو يتحدث به التاريخ عن حكمهم فى إسبانيا، لأن الأحجار، وهى شواهد صماء، لا تقدم لأبصارنا حتى اليوم صورة كاملة لازدهار وثقافة العرب الإسبان. وهذه الآثار الإسلامية التى بقيت على الرغم من تدمير الناس والزمان لها، لا تكثر فى مكان من إسبانيا كما تكثر فى غرناطة، ولا يكاد يوجد مكان فى هذه المدينة العظيمة، أو فى ما حولها، لا يحتوى على بقايا من العصر العربى. ولا نستطيع بأية حال أن نذكرها كلها هنا، ولكن من الضرورى أن نشير إلى أكثرها أهمية، وإذا استثنينا الحمراء وجنة العريف، فإن أحدًا من الرحالة لم يشر إليها.

● **الآثار العربية فى غرناطة:**

ولنبدأ من بينها بربوة «عين الدمع»[٣٥] الفاتنة، وكانت المكان المفضل لراحة العرب، وهى بجانب باب إلبيرة، وتغص بالرياض والبساتين، ويصفها ابن بطوطة بأنها لا مثيل لها فى العالم[٣٦] ويستطيع المرء أن يرى المدينة من أعلاها: سطوح بيوتها، ودروبها، وقصورها، وقبابها، وجوامعها، ومآذنها، وهو منظر بالغ الروعة على التأكيد. وهناك تصب المياه مجتمعة، وتجرى إليها من السيرا، لتسقى أعلى أجزاء المدينة. وثمة بركة كبيرة، تحيط بها جدران قوية، تستخدم لمرور المياه والحمامات[٣٧]، ويقوم على زواياها أربعة أبراج تسمى «مناظر»، وتوجد لها الآن نظائر فى كثير من بيوت المدينة، وما زالت بقايا هذه الأبراج قائمة حتى يومنا، وكذلك البركة، وتغطيها نباتات الجنبة، وتطوقها أشجار اللبلاب من جوانبها،

---

(٣٥) وهى ضاحية من ضواحى غرناطة الفاتنة، وكانت أيام المسلمين متنزها بديعا، تغص بالمروج والحدائق الغناء، وظلت حتى بعد سقوط غرناطة تحتفظ على أيام الموريسكيين ببعض سحرها القديم، وأصبح اسمها «عين الدمعة»، وكانت مسكن علية القوم، وفيها بنى لسان الدين ابن الخطيب، الوزير والكاتب والمؤرخ، قصرا بديعا له طالما تحدث عنه، وعن الضاحية نفسها. (المترجم)

(٣٦) ابن بطوطة، ٤/٣٦٩.

(٣٧) بدرانا، التاريخ الكنسى لغرناطة، القسم الرابع، الفصل ٤١.

ووسط البركة جاف[٣٨]. ومن هذه الربوة، وهى قريبة مما يطلق عليه اليوم اسم لاكرتوخا La Cartuja، يمكن الوصول إلى باب إلبيرة، الذى يقود الى مدينة إلبيرة القديمة، وقد تدهور عقده الضخم، ذو الشكل الحدوى، الذى تزينه الشرفات. وعلى اليسار ، ، تقع القصبة القديمة فوق مرتفع، وأسوارها فى الجانب الأعظم منها لما تزل قائمة وصلبة، ولكن الحى بأكمله أصبح خرابا.

وفى قمة الارتفاع الذى أشرنا إليه، قريبا من القصبة القديمة، فى دائرة كنيسة سان ميجيل كان يوجد قصر باديس بن حبوس، مؤسس أول إمارة حكمت غرناطة، وذلك طبقا لرواية مرمول، ولكن لا توجد له بقايا الآن، ويشار اليه باسم «بيت الديك Casa del Gallo» أو «بيت لا لونا La Luna».

وثمة بابان من العصر العربى لا تزالان باقيان حتى اليوم، وهما : «باب فج اللوز Fajalauza، وباب عين بيدر Onebidir أو Bonaita.

وتتعمق أكثر فى البيازين، الحى الذى كان يسكنه البياسيون، الذين أزاحهم المسيحيون عن وطنهم بياسة Baeza، واستقروا هناك، وليس ثمة مكان آخر يحمل الطابع الشرقى واضحا، ودون تغيير، كما فى هذا الجانب من المدينة، وهو يقوم ويمتد فوق منحدرات الربوة الوعرة، ولم يبق ، فى الحق، من مسجد البيازين إلا أطلال غير ذات أهمية، وكان يقوم فى المكان الذى تشغله اليوم كنيسة سان سلفادور. وعلى النقيض، توجد بيوت خاصة كثيرة، لا تزال فى الشكل الذى تركها عليه العرب. فالأسطوان[٣٩]، ودخل اللغة الاسبانية فى صورة Zaguan، والساحة الداخلية تتوسطها عين أو نافورة، وتطوقها الخضرة، والغرف ذات الحنايا، أو الحنية الواحدة، فى مدخلها، تجى فى شكل محراب، وتحفظ فيها

---

(٣٨) يقول ميجيل لفونت القنطرة : ان محيط البركة يبلغ ٤٠٠ خطوة، وعرض جدرانها ثمانية أقدام، وتتكون طبقا لعادات المسلمين من بلاط وأحجار ورمل وجير، وفى أحدى زواياها الغربية نرى بوضوح أساس وبقايا برج من الأبراج الأربعة التى كانت فى الزوايا، وفى نهاية هذا الجانب نفسه تتوزع بقايا برج آخر.
(خوان بالبرا)

(٣٩) ابن بطوطة، ٤/٥.

باب فج اللوز Fajalauza

الأباريق، أو الكئوس الكبيرة، مملوءة بالماء[٤٠]، والشمسيات الدقيقة الصنع، ودخلت الاسبانية فى صورة ajimeces، وهى النوافذ المزدوجة العقود[٤١]، والحنية ودخلت اللغة الإسبانية فى صورة alhania، وتعنى القبة alcaba الصغيرة[٤٢]. وقد

(٤٠) كما سيظهر فيما بعد، فان الفكرة الشائعة فى غرناطة نفسها، وفى كتابات كثيرين من الرحالة، من أن هذه الحنايا مخصصة لوضع النعال فيها، فكرة خاطئة تماما.

(٤١) كترمير، تاريخ سلاطين المماليك ٢٢/٢٨٠. وابن جبير، ص ٢٦٦ و٢٣٧.

احتفظوا بذلك كله، ولا تزال جميعها، فيما يبدو، مهيأة لاستقبال سكانها القدامى، ومع ذلك فان المعمار العربى الذى يبدو من خلالها إنما يمثل مرحلة الاحتضار فحسب، وكما سبق أن قلنا فان الموريسكيين ظلوا زمنا يسكنون حى البيازين، كمقر رئيسى لهم تحت الحكم المسيحى، ومساكنهم تحمل طابع تلك الأيام التعسة، وعبثا نحاول البحث فيها عن زخارف جميلة ورائعة على الجدران، وما أقل ما نلتقى بالنقوش العربية.

فاذا تركنا حى البيازين، وسلكنا طريقنا فى الاتجاه الذى يلتقى فيه نهرا شنيل والدارو، نلتقى ببقايا ظاهرة لقصر عربى بحدائقه، وعلى الجانب الآخر من الطريق الرائع المحفوف بأشجار الحور العملاقة، الغارق فى الضىء والطراوة، ووشوشة النوافير، ولعله أجمل طريق فى العالم للنزهة، وهناك وراء جسر نهر شنيل فى طريق أرملة Armilla وفى أملاك الدوق جور Gor، وتعرف باسم بستان الملكة،

---

(٤٢) طبقا لكوبارىياس Covarrubias فان الحنية تعنى القبة، أو المكان الذى ينام فيه. ولكن دوزى أعطاها معنى القبة، وردها إلى هذا الأصل.. ولكن الاستخدام فى إسبانيا أعطاها المعنى الأول، وكليات كليبخو التى ذكرها دوزى لا تدعم رأيه فى شىء، ولكنها تؤكد بدقة تحديد كوبارىياس، مهما يكن أصلها ومعناها فى اللغة العربية، وكلمة الحنية لا تعنى فى اللغة الاسبانية غير القبة، وما ذكره دوزى نقلا عن جونثالث هو: «أمام باب هذه الحنية، وهو عقد كبير» فأخطأ حين فهم أنه يشير إلى الحنية، بينما هو يشير فى الحقيقة الى الباب. فالباب وليست الحنية كان عقدا كبيرا. ويصف لنا كليبخوبيت تيمور بك قريبا من مدينة سمرقند، بأن جسم البيت فيه «ثلاث حنيات تتخذ أسرة أودكة». ويضيف: وفى المواجهة كانت واحدة من هذه الحنايا، هى أكبرها، وكان عليها صور تمثل قصة، وأمامها مخدع من الوسائد الصغيرة، عملت من أقمشة حريرية مطرزة بالذهب. وبعد أن انتهى من وصف الحنية، ولا يمكن أن تعنى غير قبة، وقبة صغيرة، يأتى فى الحال بالكلمات التى استشهد بها دوزى، وفهمها خطأ، واعتقد انها تخدمه برهانا حاسما على الحقيقة التى يؤكدها، ولم يفهم دوزى فقط الكلمات التى ذكرها، وانما لم يقرأ أيضا، أو لم يفهم، الكلمات التى سبقتها. (خوان باليزا)

● بعيدا عن الصراع بين دوزى وبعض العلماء الأسبان الذين يحاولون أن يتسقطوا أخطاءه، ليقللوا من قيمة الأعمال العظيمة التى قام بها، وبدافع الغيرة والحسد أحيانا، فان الحق مع دوزى رغم كل ما كتب باليزا. الحنية تعنى فى اللغة العربية الاعوجاج أو التجويف الذى فى الحائط، ولم تتحدث المعاجم عن معناها الاصطلاحى المعمارى، بما فى ذلك المعجم الوسيط الذى أصدره المجمع اللغوى فى القاهرة، ولكن من كثرة ترددى على الآثار الإسلامية فى اسبانيا، وما هو شبيه بها فى المغرب، يمكن أن أؤكد أن الحنية تعنى التجويف الذى يرى فى الحائط، كالقبلة، وقد يكون عريضا وعميقا، ويتخذ مكانا للراحة والجلوس، ويجئ سقفه فى شكل نصف قبة، ولكنه بعيد تماما عن لفظ القبة كما يتحدث بها الإسبان اليوم وتعنى غرفة النوم. ولسبب لا أفهمه فان كلمة الحنية، رغم شيوعها فى النصوص الوسيطة الاسبانية على الاقل قد حذفت من المعجم الذى أصدره المجمع اللغوى فى مدريد. (المترجم)

نرى برجا مربع الشكل، عريض المساحة، واضح الامتداد، وفيه قاعة مرتفعة، ويشبه فى تكوينه برج قمارش فى الحمراء، ونقوشه العربية بارزة، ومتداخلة مع زخارف أنيقة من الملاط، وتحتوى على شعار بنى نصر: «ولا غالب الا الله». وفى مرات كثيرة على عبارة «بارك واحفظ سعادة وصحة سيدنا السلطان، الملك العادل، آمين».

وليس بعيدا من هناك، فى الجانب الأسفل من البستان، توجد بركة كبيرة، وقريبا منها نلحظ أنقاض بهو، وكان يستخدم فيما يحتمل حماما. وكان هذا القصر الذى تخلفت بقاياه يعرف بين العرب باسم قصر السيد وطبقا لما وصلنا من شواهد، فإنه كان موجودا فى زمن مؤسس الدولة النصرية، وأعطاه هذا سكنا للأمير دون فيليب، وكان مع فارس مسيحى آخر قد أقام طويلا فى غرناطة[٤٣].

فاذا عدنا الى الخلف، عبر قنطرة شنيل، متجهين نحو دير سنتو دومينجو، نرى إلى جواره بقايا حدائق ومبانى، وكانت فيما يبدو متصلة بالحمراء عبر طريق تحت الأرض، وتكوّن فى مجموعها، مع قصور أخرى، مقر الملوك، وكانت تتغير باختلاف فصول العام. وثمة طريق آخر مغطى بأفنان الغار الكثيفة والمظلة، والتى لا تستطيع أشعة الشمس أن تخترقها أبدا، وتقودنا الى ما يسمى بالغرفة الملكية Cuarto Real[٤٤]، وهى فى برج قوى متماسك الجوانب وصامد، وفى داخله توجد قاعة مرتفعة، يعلو جدرانها القيشانى الجميل، وزخارف عربية أخرى، وتؤكد الرواية أن عواهل غرناطة كانوا يعتكفون فيه خلال أيام رمضان لكى يستسلموا للصلاة والصوم، معتكفين وخاشعين طوال الشهر المعظم، يتلون القرآن، والمواعظ الخاشعة التقية المنقوشة على جدران القاعة تدعم هذه الفكرة، فيما يبدو. وبين هذه النقوش يتكرر أول سورة الفتح كثيرا وبينها أيضا: «يا ثقتى، يا أملى، أنت الرجا، أنت الولى، فيا للنبى المرسل، اختم بخير عملى». و«لا ملاذ لنا بغير

(٤٣) وقد ذكر نفجيرو أيضا هذا القصر، وكان فى زمنه نصف أطلال، وأنه فى «بستان الملكة»، ليس بعيدا من نهر شنيل.

(٤٤) يملك الآن هذا الأثر الرائع السنيور اميليو بريث دل بوجاد، وقد رممه شيئا، فى جانب منه فحسب، لأن ترميمه كله صعب وباهظ النفقات، وقد وصف اميليو لفونت القنطرة هذه الغرفة، وترجم كل النقوش التى عليها، وليس فيها شئ ذو أهمية أكثر مما أشار اليه شاك (خوان بالبرا)

ما يأتى من عند الله القوى العليم، ولا دافع لى غير ما يهبنى الله، فيه أثق ، وإليه أعود».

ومما يثير العجب أنه على الرغم من كل غضب وانتقام محاكم التفتيش ضد كل ذكريات الإسلام، لم تهدم هذه النقوش العربية، ونقوش أخرى كثيرة، لا تزال تحتفظ بها غرناطة.

ونتجه الآن نحو ذلك الجانب من المدينة، ومازال حتى اليوم كما كان عليه أيام المسلمين، وهو الأشد جاذبية. ولأنه المركز التجارى فيها فقد د خلنا إليه من الميدان الشهير الذى يحمل اسم «باب الرملة». وجاء اسمه من «باب الرمل» القريب منه، ورغم البيوت الكثيرة القديمة التى تحيط به، فإن الميدان المتسع بعد كثيرا ، فيما يبدو، عن الطابع الذى كان عليه الميدان نفسه، وشهد فى عصور أخرى المبارزات ولعب الصولجان بين ابن سراج وأبى عبد الله الصغير، وعبثا نبحث عن الشمسيات، تلك النوافذ الدقيقة، ذات العقود المزدوجة، تتوسطها عمدان صغيرة، ومن ورائها خلال الشباك الحديدية التى تكسوها، ومن مشربياتها، تراقب السيدات الجميلات الحفلات.

ونمضى فى طريق عريض يدعى شارع السقاطين، وهى كلمة عربية دخلت اللغة الإسبانية فى صورة Zacatin، ومن الميدان المذكور نصعد فى موازاة الدارو، فنرى القيصرية أولا على الشمال[٤٥]، وهى مساحة كبيرة، ذات قاعات عديدة، تشغلها المحلات التجارية وغرف التجار، وكانت القيصرية تضم بقايا أوضح ألوان المعمار العربى فى غرناطة الى أن أتى عليها حريق حدث عام ١٨٤٣[٤٦].

---

(٤٥) من المحتمل ان كلمة القيصرية مشتقة من لفظ قيصر، كما ذكره لفونت القنطرة، معتمدا على مرمول كربخال، لأن الرومان كان لهم بناء مسور فى كل مدينة أفريقية لخزن بضائعهم، وإقامة تجارهم، وتوفير الأمان لهم وأن العرب والمسلمين قلدوهم فى هذا. (خوان باليرا)

(٤٦) ومثل هذه القيصرية يوجد فى المدن الأفريقية أيضا، وهى تؤدى المهمة نفسها التى يؤديها «البازار» ولكن تحت اسم آخر. أنظر:

- البكرى، طبعة سلان، ص٢٢.
- عبد اللطيف، طبعة ساسى، ص ٣٠٣.
- مرمول، وصف أفريقيا، ٨٧/٢.
- ابن بطوطة، ٤/٣.

والكتدرائية القريبة منها تومئ إلى المكان الذى كان يحتله المسجد الجامع فقد أقيمت على أنقاضه، وفى المصلى منها يوجد قبر هرنان بيريث دل بولجار Hernan Pérez Pulgar، وثمة نقش يشير الى مغامرات هذا البطل، وكان قد دخل المدينة قبل عامين من الاستيلاء عليها، وإشارة إلى امتلاكها علق بقبضة يده تمثال حواء مارية على الباب نفسه.

ينتهى شارع السقاطين فى الميدان الجديد Plaza Nueva، ومنه يمكن الصعود إلى الحمراء عبر شارع «لوس جوميلس Los Gomeles»، وإذا واصلنا السير على ضفاف نهر الدارو، فسوف نكتشف سريعا منظرا رائعا، فوق رابية كثيرة الجداول ، كثيفة الخضرة، تغطيها أشجار البندق والجوز ونباتات أخرى، وكان العرب يطرونها كثيرا، ويرونها جنة الله فى الأرض، ويجىء لزيارتها خلق كثيرون، من بلاد بعيدة، لأنها تنعش النفس، وفيها يصح البدن، ومن بين جبالها المرتفعة تبرز أسوار الحمراء، وتعلو أبراجها ذات اللون الأحمر، وبعيدا هناك، فى أعلى قمة منها، بين أكام من أشجار الرمان والريحان، تزهو جنة العريف، تبهر النظر بجمالها الفاتن، وتسيطر على المشاعر بفتنتها الحالمة.

● جنة العريف :

وكان هذا البيت الريفى مصيف ملوك غرناطة، ويبدو أنه لا يعود الى عصر بنى نصر أنفسهم، كما نفهم ذلك من نقش لا يزال موجودا حتى يومنا ، وفيه أن الملك أبا الوليد، «إسماعيل الأول ابن فرج»، جدّد البناء فى عام الانتصار الأعظم للعقيدة، وهو يشير إلى أبى الوليد الأول، والى معركة عام ١٣١٩، والتى قتل فيها دون بدرو Don Pedro ودون خوان : Don Juan[٤٧].

(٤٧) أرجوت دى مولينا : نبلاء الأندلس، الكتاب الثانى، الفصل ٥٢. ومدونة الفونسو الحادى عشر، الفصل ١٨.

● فى عهد أبى الوليد زحف الجيش القشتالى بقيادة دون بدور «دون بطرة فى المصادر العربية القديمة» ودون خوان وكانا وصيين على الفونسو الحادى عشر ملك قشتالة، وكان وافر العدد، ومعهم العديد من أمراء قشتالة، ومن المتطوعين الانجليز، وجرت بينهم وبين المسلمين وقعة هائلة قرب غرناطة عام ٧١٩ هـ-١٣١٩م، «ويجعلها ابن خلدون عام ٧١٨ وهو الأصح»، وكان المسلمون فى ستة آلاف، منهم ألف وخمس مئة فارس، والبقية رجالة، ولكنهم صفوة مختارة بقيادة شيخ الغزاة أبى سعيد عثمان بن أبى العلاء، وكان نصر المسلمين حاسما رغم قلة عددهم، وقتل دون بطرة نفسه فى هذه المعركة، ولم يقتل من المسلمين إلا العدد اليسير. (المترجم)

ويجد الداخل فى الرسوم التى على القاعة ، حيث تقوده الى البيت الريفى، آيات من القرآن الكريم، تذكره بالسعادة التى أعدها الله للمتقين من عباده فى جنات الآخرة : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم، بارك الله فى سيدنا ومولانا الأمير محمد وأسرته تحية وسلاما، ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا[٤٨]، ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما، وينصرك الله نصرا عزيزا، هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما[٤٩]. ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا، ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما، إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا، إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما، سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إنْ أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرًا﴾.

وفى مساحة تشكل إطار العقود التى تؤدى الى داخل المبنى توجد هذه الأبيات من الشعر :

قصرٌ بديعُ الحسنِ والإحسانِ لاحتْ عليه جلالةُ السلطانِ
راقت محاسنهُ وأشرق نورُه وهَمَتْ سحائبُ جودِه الهَتّانِ

---

(٤٨) ترجم إميليو لفونت هذه الآية على النحو التالى : « لقد فتحنا لك بابا صريحا. (خوان بالبرا)

(٤٩) باستثناء المقدمة، فالبقية من سورة الفتح ، الآيات من ١ الى ٥، ويوجد فى النقش حتى الآية الحادية عشرة، وقد ضاعف اميليو لفونت من هذا النقش فى الحقيقة.

● اقتصر شاك من النقش حتى الآية الخامسة، وآثرت أن آتى به كاملا، ليكون أصدق تصويرا للحالة التى يعرض لها وهى تصوير أحداث المعركة التى انتصر فيها أبو الوليد. (المترجم)

رقمْت يدُ الإبداعِ فى أرجائه وشْياً كمثلِ أزاهرِ البستانِ
فكأنَّ مجلسَه العروسُ تبرَّجتْ عند الزفافِ بحسنها الفتَّانِ
وكفاهُ من شرفٍ رفيع القدرِ أنْ نال اعتناءَ خليفةِ الرحمنِ
خيرُ الملوكِ أبو الوليد المتَّقىَ من نخبةِ الأملاكِ من قحطانِ
المقْتَدِى بالطاهرين جدودِه أنصار خيرِ الخلقِ من عدنانِ
لحقتْهُ منه عنايةٌ قد جَدَّدتْ منه جمالَ مصانعٍ ومبانِ
فى عَامِ نصرِ الدين والفتحِ الذى هو بالحقيقةِ آيةُ الإيمانِ
لازال معنوًّا بسعدٍ خالدٍ فى نورِ إرشادٍ وظلِّ أمانِ

وقد عانت جنة العريف كثيرا من عبث الأيام وإهمال العناية ،وسوء ذوق البشر، حتى أنها لا تكاد اليوم تعطى أكثر من مجرد فكرة عما كانت عليه فى زهرة أيامها الأولى.

○ جنة العريف كما رآها رحالة إيطالى :

ومن المفيد ، فيما أرى، أن ننصت الى وصف نفجيرو Navagero لها، وقد رأى القصر والحدائق عام ١٥٢٦م، ولم تكن يد الزمان والأحداث قد عبثت بها كثيرا، ولو أنها كانت قد أخذت طريقها نحو الانحدار على التأكيد، ولكن حتى مع هذا الانحدار كانت أفضل بكثير مما هى عليه اليوم. ومن الوصف المذكور نخرج بتصور حىٍّ لفن العرب فى بناء الحدائق وربطه بالمعمار، يقول هذا الرجل البندقى النبيل :

« خرجنا من الأسوار التى تطوّق الحمراء، من باب مستحدث يوجد فى الخلف، ودخلنا فى حدائق قصر آخر بالغة الروعة، وتوجد فى قمة الجبل، ويسمونها جنة العريف[٥٠]. ورغم أن هذا القصر ليس كبير الحجم جدا، إلا أنه بناء ممتاز، وأراه مع حدائقه الرائعة، وتشكيلات مياهه العديدة، أجمل ما رأيت فى إسبانيا، ويحتوى على ساحات كثيرة، تجرى المياه فيها كلها متدفقة وفيرة، وأفضلها ساحة تجرى قناة

(٥٠) كلمة العريف تعنى ما يعدل فى لغتنا الحديثة المهندس المعمارى.

المياه فى وسطها، وتمتلئ بأشجار البرتقال والريحان، وهناك منظرة كبيرة مغطاة، تقدم مشهدا بالغ الروعة، وتحتها تنمو أشجار الريحان عالية، حتى تكاد تبلغ الشرفة. وأشجار الريحان هذه كثيفة، وذات رائحة طيبة، وترتفع متساوية فوق الربوة، وتبدو كما لو كانت واديا أخضر. وتجرى المياه عبر كل جنبات القصر، وحتى داخل الغرف نفسها، إذا أردت، وبعضها أعد لكى يقدم فى الصيف إقامة حلوة محببة، وفى ساحة منها فياضة بالخضرة والأشجار الجميلة تتناثر المياه فى أشكال ذكية، ويجرى الماء أحيانا خلال قنوات مغطاة، ولا تلبث أن تفاجئ الماء فوق العشب الأخضر، متفجرة بين قدميه، وكل شئ حوله يسبح فيها، ثم تختفى القنوات من جديد بطريقة لطيفة محببة، دون أن نلحظها. والى جانب ذلك، توجد هناك ساحة أخرى أقل ارتفاعا من الأولى، وليست كبيرة جدا، تحيط بها أشجار اللبلاب الكثيفة والجميلة، حتى لا نكاد نرى جدرانها، إنها الساحة التى فوق الصخرة، وفيها شرفات كثيرة، ومنها يمتد البصر إلى مسافات بعيدة، نرى من خلالها نهر الدارو فى تدفقه، وهو منظر فاتن وجميل».

وفى وسط هذه الساحة توجد نافورة رائعة، تصب فى حوض كبير، وتندفع المياه خلال أنبوبة فى الوسط إلى ارتفاع يقرب من عشرين مترًا، وغزارة المياه مذهلة، ولا شيء أكثر لطفا مثل أن ترى المياه تتفجر، وتسقط، وتتحول إلى رذاذ. ومع رؤيتها فحسب، كيف تتناثر عبر كل الجوانب، ثم تتفتت وتتلاشى فى الجو، يمكن أن تستمتع بأوقات طرية لطيفة.

وفى الجانب الأعلى من هذا القصر، يوجد فى الحديقة درج عريض وجميل، يصعد إلى هضبة تجرى إليها المياه بكميات وفيرة من صخرة قريبة، ثم تتوزع على القصور والحدائق، وثمة مفاتيح محكمة، وأبواب متقنة، تحكم تدفق هذه المياه، وتدع الماء يجرى بالقدر المناسب، فى اللحظة المطلوبة، وبالطريقة المقررة، وقد شيد الدرج بفن، فترى وأنت هابط كل درجة منها أعرض من سابقتها، ويخترق كل الدرجات تجويف فى الوسط تجرى المياه خلاله، ثم تتجمع فى شكل ماء راكد. ويوجد أيضا تجويف آخر، فى أعلا أحجار الدرابزين الذى يوجد على جانبى الدرج، ويستخدم مجرى ماء أو قناة، وفى أعلى مفتاح مناسب لكل واحد من هذه

التقسيمات، أى أن الماء يمكن أن يتدفق للبهجة، عبر القنوات التى فى أعلى الدرابزين، أو فى التجويف الذى فى وسط الدرج العريض، أو من خلال الطريقتين فى الوقت نفسه، ويمكن أيضا، إذا أردت، أن تزيد من تدفقها وكمياتها، فتفيض على جانبى القنوات، وتسبح فيها كل درجات السلم، وتبل كل من يكون عليها فى تلك اللحظة، وهكذا استطاع العرب أن يصنعوا من المياه ألف لعبة ولعبة، وباختصار يبدو لى أن هذا المكان لا ينقصه شيء من الجمال واللطف، وكل من يعرف كيف يستمتع ويحترم الجمال إذا عاش هناك مستريحا، عاكفا على الدرس، آخذا من اللذاذات النبيلة بنصيب، لن يشعر بالحاجة الى أية رغبة أخرى[٥١].

● آثار عربية أخرى فى غرناطة :

وفوق قمة الربوة، وهى اليوم قاحلة، وترتفع خلف غرناطة، وفى أعلى صخرة وعرة المنحدر، وتسمى اليوم مجلس المسلم Silla del Moro نلاحظ حتى الآن بقايا جدران وبرك قديمة متهدمة تشير إلى مكان قصور أخرى، أو بيوت ريفية لبنى نصر، وفيها كانت القلعة الصخرية واشتهرت ببهائها، ويسمونها فى العربية قصر الحجارة، وبالإسبانية Aligares وبيت ريفى آخر تحوطه حدائق باسمة، ويسمونها دار العروس.

ومما يثير الدهشة والعجب كيف تلاشت هذه المبانى والحدائق سريعًا، حتى أن نفجيرو لم ير فى عام ١٥٢٦ م غير بقايا أطلال من عظمتها الأولى، ومع ذلك، فإن وصفه لها مهم للغاية، لأنه يسجل فى دقة محمودة الأمكنة التى كان يوجد فيها كلا البنائين، لأن دمارها لم يكن حينئذ كاملا كما هو اليوم : «فإذا صعدنا إلى ما هو فوق جنة العريف حيث كان الدخول فى زمن ملوك المسلمين إلى حدائق قصر ثان بالغة الجمال، ويسمى قصر الحجارة[٥٢]، ومن هناك يمكن الذهاب أيضًا إلى

(٥١) Naugerii, opera, pag. 365.

(٥٢) يقول دون ميجيل لفونت القنطرة فى مؤلفه «كتاب الرحالة» : كان قصر الحجارة أجمل قصور ملوك غرناطة المسلمين وأضخمها، وأقيم على ربوة عالية، ولا تزال أنقاضه باقية حتى يومنا، وقد أشاد كل من : لوثيو مارينيو، ومرمول، وبدرانا، بروعة هذا القصر والأغانى الرومانسية الغرناطية القديمة تشير إليه. يسأل الملك دون خوان ملك قشتالة أسيراً مسلما فى فج غرناطة :

حدائق قصر آخر، وكان يسمى يومها دار العروسة Daralhaaroza أما الآن فهم يطلقون عليها اسم «سانتا إلينا Santa Elena. وكل الطرق حيث تمضى من مكان إلى آخر، مغطاة حتى النهاية بأشجار الريحان، أما اليوم «زمن الكاتب الإيطالى طبعًا» فكله دمار، ولا ترى غير بعض الأطلال، والصهريج بدون ماء، لأن القنوات تهدمت، وبقيت بعض بقايا الحديقة، وعلى جانبى الطريق يقوم قليل من براعم شجر الريحان وذلك أنها على الرغم من اجتثاثها مازالت تحتفظ ببعض جذورها.

«وتقع دار العروس فوق جنة العريف، على الجانب الذى يطل على نهر الدارو، على حين أن قصر الحجارة، على العكس، يقع خلف الحمراء، ويوجد على اليمين فى ربوة تطل على الوادى، حيث يجرى نهر شنيل، ومن ثم يمكن للمرء أن يستمتع فيه بمنظر الفج الرائع. وأبعد منه فى الاتجاه نفسه، على ربوة فى وادى شنيل، على بعد نصف ميل أو أزيد قليلا من قصر الحجارة، يوجد قصر آخر، وصلنا على نحو أفضل، وينتمى إلى عصر الملوك المسلمين، وهو فى موقع رائع الجمال، وأكثر انعزالا من بقية القصور، وأقرب إلى النهر. وأخيرًا إذا حكمنا من خلال أطلال القصور، وبقايا البيوت الريفية الجميلة، وجب علينا ان نستنتج منها أن اولئك الملوك المسلمين لم يكن يعوزهم شيء مما يبهج المرء، ويجعل الحياة أكثر متعة وجمالا».

أطلال قليلة من هذا القصر الأخير، ويدعى دار الود Dar ul Guad لا تزال باقية فى مكانه حتى اليوم، ويوجد فى بقعة لا يمكن للمرء أن يتصور مكانًا آخر أشد جمالا منها وأعذب رومانسية، فى طريق ثنس Cenes. وثمة بيت حديث فى كل

= أية قلاع تلك،
عاليه وذات بريق؟
فيرد المسلم:
إنها الحمراء يا سيدى،
والأخرى المسجد،
والبقية قصور الحجارة،
وبنيت فى فخامة وروعة. (خوان باليرا).

شيء تقريبًا، وفقير فى المظهر، يسمى «بيت الدجاج Casa de las Gallinas»، أقيم فوق أنقاض القصر القديم، ولكن الأساس، والجانب الأسفل من الجدران، وعقد أحد الأبواب، وفوقه يمكن أن نكتشف الآن بعض زخارف من الملاط وكلها تشير إلى يد الفنان العربى(٥٣).

ونعود إلى المدينة بعد هذه النزهة، لنذكر بعض الأبنية الملحوظة، والجانب الأكبر منها يقع على مسافة غير بعيدة من نهر الدارو. فثمة مدخل عربى جميل لا يزال قائمًا فى بيت العملة Casa de la Moneda ويوجد بداخلها نقش يشير إلى أن هذا البيت كان مستشفى فى أيام المسلمين(٥٤). وكان فى ساحته حتى زمن قريب، بقايا أسدين كبيرى الحجم من الحجر، يتدفق الماء من حلقوميهما، ويصب فى حوض كبير. وبيت الفحم Casa del carbon، ولا يبعد عن ميدان باب الرملة كثيرًا، ويوجد مهملا فى حالة بالغة السوء، ولا يزالون يعترفون حتى اليوم بأنه كان فى أزمان خلت صورة رائعة للفن العربى، ولم يبق من هذا كله إلا عقد مدخله المرتفع تزينه زخارف من الملاط، وقبته ذات الأشكال المتدلية، وفوق العقد نقش يتضمن صورة الإخلاص، وكتبت فى خط كوفى، وآياتها رفض مباشر لعقيدة التثليث، إنها تقول: ﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد﴾.

وجهل المسيحيين وحده هو الذى يفسر لنا كيف أن هذه الكلمات إذا نطقها

---

(٥٣) ذكر هذه القصور الجميلة أيضًا كل من: مرمول فى كتابه «ثورة الموريسكين»، ومندوثا فى كتابه «حرب غرناطة»، وبدرانا فى كتابه «التاريخ الكنسى لغرناطة»، وبيريث دى هيتا فى كتابه «الحروب الأهلية فى غرناطة»، ولوثيوس مرينيوس نكولوس فى كتابه: De rebus Hispanie، ولم يشر واحد منهم إلى مكان هذه القصور بدقة كما فعل نفجيرو، وثمة اخبار تتصل بغرناطة فى العصر الذى تلا حرب الاسترداد مباشرة توجد فى كتاب:

Annales de vita et rebus gestis Friderici II electoris Palatines. Auctore Huberto Leodio. Francofurti. 1624.

وقد أقام فريدريكو الثانى فترة طويلة عام ١٥٢٦ م، فى بلاط كارلوس الخامس، عندما كان يقيم فى الحمراء، ولكنه اهتم أكثر، هو والذين معه، بمصارعة الثيران، وبرقص الفتيات الموريسكيات لهم، أكثر من اهتمامهم بكل معالم المدينة المعمارية.

(٥٤) ترجم لفونت القنطرة النقش فى كتابه النقوش العربية فى غرناطة»، ص ١٧٣ - ١٧٤، ولم أنقله هنا لأنه طويل جدًا. (خوان بالبرا)

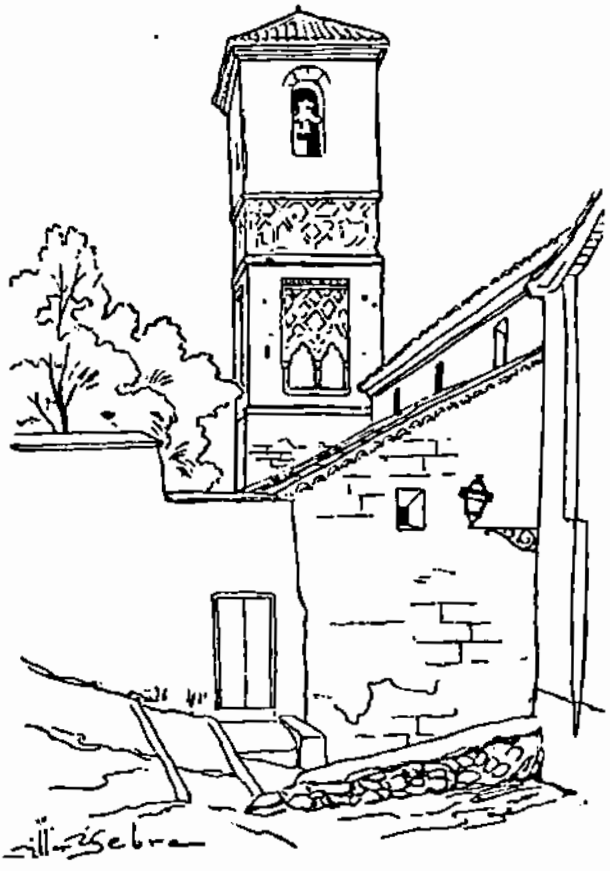

مئذنة مسجد الطيبين وأصبحت برج ناقوس بعد أن حوّلوه إلى كنيسة

إنسان، وهى مكتوبة فى لغة لا يفهمها، سوف تحمله إلى شعلة متوهجة، ليحرق حيا فى وسط الشارع، على مرأى من الجميع دون أن يجرؤ أحد على معارضة محكمة التفتيش.

وثمة منارة صغيرة تشبه «الخيرالدا»، ولكن فى التفصيلات الصغيرة، ولا تزال باقية حتى اليوم فى كنيسة سان خوان الملوك San Juan de los Reyes [وأقيمت فوق أنقاض مسجد الطيبين] وعلى النقيض من هذا لم يبق فى دير سانتا إيزابيل الملكية،

ونعرف أكيدًا أنه بنى فوق قصر وحدائقه كان ملكا لبنى نصر[٥٥]، أية أطلال ذات أهمية يمكن أن تشى بمعماره العربى.

وأخيرًا، ما زال البناء الذى يدعى « بيت شابيث Casa de chapiz »[٥٦]، يحتفظ بساحته حتى يومنا، وتقوم حولها قاعات ذات دورين مع أعمدة من الرخام، وشمسيات دقيقة، وسقف وعقود وحيطان مليئة بالزخارف الجميلة والقيشانى.

● قصر الحمراء :

بقى علينا أن نتحدث عن أهم الآثار العربية فى غرناطة : عن الحمراء. وسميت كذلك لأن اللون الأحمر كان يكسو جدرانها[٥٧]، وهى القصور الوحيدة التى وصلتنا فى حالة جيدة، وقاومت عوادى الزمن، بين قصور وقلاع عربية أخرى كثيرة كانت قبلها فى إسبانيا على هيئتها، وهى اليوم فى : جيان، ومالقة، وطريف، والمنكب، وجوسين Gaucin ولوشة، وشاطبة، والمرية، ومربيطر، ترقد أطلالا كلها على نحو ما. وهذه القلاع كان من العادة أن تضم بين جوانبها. التى تتناثر عليها الأبراج، قصر الأمير أو العامل أو القائد، وبيوت كبار الموظفين، ومسجدًا، ومعسكرا، ودار الصناعة وغيرها.

ويذكرنا موقع الحمراء فوق المدينة بموقع قلعة هيدبرج Heidelberg فهذه فوق ارتفاع وعر المنحدر، على ضفة نهر Neckar، وكذلك الحمراء، تسيطر على كل وادى الدارو العميق، وتلمع حيطانها من بعيد، والمواد التى بنيت بها المنشآت المختلفة ليست واحدة بعامة : فبعضها مبنى بأحجار ولبن، وضعت مع ملاط، وبعضها الآخر بنيت جدرانه بما يسمى الطابية، وهى كلمة دخلت الاسبانية فى

---

(٥٥) انظر : فرناندو دى بالنثيا، أشياء غرناطة، وعاصر فترة استيلاء المسيحيين عليها ونشره ج. موللر، ص ٦٤.

(٥٦) تشغل هذا البناء الآن مدرسة الدراسات العربية فى غرناطة. (المترجم)

(٥٧) بما أن اسم الحمراء يعود إلى القرن التاسع الميلادى، على نحو ما أشرنا من قبل، يصبح غير مقبول الرأى القائل بأن ابن الأحمر، مؤسس النصرية، هو الذى أطلق عليها هذا الاسم. وثمة قصر فى العراق كان يسمى الأحمر، وذكره كوزجارتن فى كتابه : منتخبات عربية، ص ١٢٦. وابن خلكان، طبعة سلان، ص ٢٤٠.

صورة tapia ومادتها مزيج من التراب والجير والأحجار الصغيرة، وهذا اللون من المبانى هو الأكثر شيوعًا، وكان مستخدمًا فى أفريقيا وأسبانيا فى زمن الرومان، وأطرى بلينيو Plinio صلابة الجدران التى تقام من هذا الخليط، «إنها تدوم قرونًا، وتقاوم المطر، والعواصف والنيران، وأصلب من كل ألوان الملاط»[٥٨].

لكى نزور القصر الملكى الشهير يمكن أن نصعد إليه من شارع «لوس جوميلس Los Gomeles» ويصل إلى باب الرمان Las Granadas ووراء هذا الباب مكان مسور ملىء بأشجار الحور الوارفة، وشوارع تصطف على جانبيها الأشجار، وتحفل بالنوافير والجداول، والجدران التى تحيط به تمتد حول الربوة، وتتوجها الشرفات، وللدفاع عنه أقيم على مسافة منه عدد لا بأس به من الأبراج، وهى تستخدم فى جانب منها للدفاع وتحميها طبيعة الأرض نفسها من جانب آخر، لأنها أقيمت فى أمكنة وعرة المنحدر، ويسكنها الملك وخدمه. وباب الشريعة هو المدخل الرئيسى الذى يؤدى إلى داخل القلعة، وهو مكان مسور تحت برجين، وكان الملك نفسه علنا، وفى جمع، يصدر الأحكام، ربما طبقًا للتقاليد المشرقية القديمة، وهذه الغاية وتنسبها الرواية إلى هذا الباب، تتفق مع نقش يقول: «أمر الله بأن تزدهر شريعة الإسلام تحت هذا الباب»[٥٩]. وهذا يذكرنا بكلمات سفر التثنية، الفصل ١٦، الآية ١٨: «قضاة وعرفاء نجعل لك فى جميع أبوابك، التى يعطيك الرب إلهك، حسب أسباطك، فيقضون للشعب قضاء عادلا». واليد الصخرية فوق الباب تشير فيما يحتمل إلى قواعد الإسلام الخمس: الصلاة والزكاة، وصوم رمضان،

---

(٥٨) بين لنا ابن خلدون طريقة عمل الحيطان من الطابية، فى مقدمته ٣٢٠/٢، وعندما يقول بلينيو إن الأسوار التى تبنى بالطين لا تكون جيدة البناء أبدًا إذا لم تملأ بواسطة قوالب أو أشكال من الخشب، فهو فى هذا يتفق تمامًا مع الوصف الذى تركه ابن خلدون، ولا يزالون يحتفظون بهذه الطريقة حتى اليوم فى شمال أفريقيا، ولكن ليست لها الصلابة القديمة. انظر: هوست، أخبار المغرب، ص ٢٦٣.

(٥٩) أورد اميليو لفونت القنطرة الترجمة كاملة لنص النقش الذى فوق عقد الباب فى خط مغربى كبير، وهى: «أمر ببناء هذا الباب المسمى باب الشريعة، أسعد الله به شريعة الإسلام، كما جعله فخرًا باقيًا على الأيام، مولانا أمير المسلمين، السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف، ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس أبى الوليد بن نصر كافى «لعلها كافأ» الله فى الإسلام صنائعه الذاكية، وتقبل أعماله الجهادية، فتيسر ذلك فى شهر المولد المعظم، من عام تسعة وأربعين وسبعمائة = (١٣٤٨ م)، جعله الله عزة واقية، وكتبه فى الأعمال الصالحة الباقية».

باب الشريعة فى مدخل الحمراء

وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، والجهاد[٦٠]. والرمز نفسه يستخدم تعويذة فى حجم أصغر. والمفتاح وهو أيضًا مرسوم هناك، ليس له من رمز يمكن أن نفهمه ألا أن الباب مفتاح القلعة، ومن النقش نعرف أن الباب شيده السلطان أبو الحجاج يوسف فى عام ٧٤٩ هـ = ١٣٤٧. وفوق الأعمدة نقرأ الكلمات التالية: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، الملك لله وحده».

وبعد أن نعبر هذا الباب، ونترك وراءنا على مسافة قريبة منه بابًا صغيرًا أيضًا، يسمى باب النبيذ Peurta del Vino وفوقه نقش يحمل اسم محمد الخامس الغالب بالله، وآيات من سورة الفتح، نجد أنفسنا فى ميدان الجب Aljibes، وعلى جانب منه نجد القصبة بأبراجها الكثيرة، وفى زمن مضى كان هناك المسجد الجامع فى الفضاء المقابل، حيث توجد الآن كنيسة «القديسة العذراء Santa Virgen» وفضلا عن ذلك كان فيها أيضًا القصر الملكى، وان شئت الدقة كانت ثمة سلسلة طويلة من الأبراج والأبهاء، والساحات والحمامات، وحجرات الحريم، وغرف أخرى للأسرة المالكة، والسيدات، والحاشية، والمراقبين، وجانب من هذه الأبنية هدمه كارلوس الخامس، ليفسح المجال أمام بناء قصر من طراز عصر النهضة، وبدأ فى إنشائه هناك عام ١٥٢٦.

ومع ذلك يبدو أن الجانب الذى هدمه الأمبراطور لم يكن ذا أهمية كبيرة، لأن نفجيرو فى وصفه للحمراء لا يذكره، مع أنه حرر هذا الوصف قبل أن يأتى الأمبراطور إلى غرناطة للمرة الأولى، وحين سحرته مفاتن مبانى بنى نصر أمر ببناء قصر بجوارها، يكون مقرًا له[٦١].

---

(٦٠) واضح ان المؤلف لسبب لا أدريه أسقط شهادة أن لا إله إلا الله، من قواعد الإسلام، وأضاف مكانها الجهاد. (المترجم)

● يرى إميليو غرسية غومث أن رقم خمسة يدعو إلى التفاؤل بين العرب، وذو قيمة وقائية، وأن هذه اليد، وتسمى «يد فاطمة» تعويذة ولا صلة لها بأركان الإسلام. انظر: مع شعراء الأندلس والمتنبى، ترجمة الدكتور انطاهر أحمد مكى ص ٢١٠، الطبعة الرابعة دار المعارف، القاهرة عام ١٩٨٥. (المترجم)

(٦١) الرسالة التى وصف فيها نفجيرو الحمراء تحمل تاريخ اليوم الأخير من شهر مايو ١٥٢٦ م، وقد دخل كارلوس الخامس غرناطة لأول مرة فى ٤ يونية من العام نفسه. انظر: سندوبال، تاريخ كارلوس الخامس، الكتاب الرابع عشر، الفقرة الخامسة. =

واختفى جانب آخر من الحمراء أيضًا، لابد أنه كان يمتد فى اتجاه ما يسمى بيت شانجة Casa Sancho، والأبراج الأخرى فى الشمال الشرقى[٦٢]. وإنه لمن المؤسف جدًّا أن الروايات الكثيرة التى عاصرت استيلاء الملكيين إيزابيل وفرناندو على غرناطة وتتحدث عن هذا الحدث، لا تقدم أى وصف للأبنية التى كانت قائمة هناك فى ذلك الوقت[٦٣].

وفى عام ١٥٢٦ م، وطبقًا لرواية البندقى النبيل ووصفه الذى أشرنا إليه لم يكن يوجد أى جانب رئيسى آخر من الحمراء غير ما هو قائم الآن[٦٤]، وينحصر هذا،

= والرسالة التى كتبها خوان نجرو سكرتير نفجيرو فى : نقوش البندقية التى جمعها Cicogna، الكراسة رقم ٢٢، صفحة ٣٣٩، وهذه الرسالة تحمل ٨ يونية ١٥٢٦ م، وتصف دخول الامبراطور إلى غرناطة.

وثملك أيضًا سلسلة من الرسائل كتبها بلتسار كستيجلون الشهير، وكان سفيرًا للبابا لدى الامبراطور كارلوس الخامس، وكتبها فى غرناطة، ولكنها لا تحمل للاسف غير أخبار سياسية.

(٦٢) ربما تهدم جزء من الحمراء فى حريق شب حوالى منتصف القرن السادس عشر، لانفجار مخزن بارود، وقد وصفه الشاعر بثينت اسبينيل :

تهاوت أسقف من أحزان عارمة،
وآجر وألواح فى الهواء الكسول،
وكرات كثيفة من نيران عنيفة،
وصنعت فى الحمراء مثل هذه الخسائر،
أتت النار والدخان على القصور الملكية،
وأين منها قصور نومانثيا - وجعلت منها بخيرة.
وانهارت غرف الملك الصغير الفاتنة،
من الرخام المعروق، واللون الأزرق، والمذهب، ولا تقدر بثمن،
انهارت، كما تهاوت عظمة سيدها

(٦٣) ثمة مكتوب صغير ونادر لفرنسى كان فى جيش الملكين إيزابيل وفرناندو يبدأ : «إنه مشهور جدًّا، وجدير بالذكر الحصار المنتصر، على مدينة غرناطة المتكبرة، الكبيرة والشهيرة»، (باريس ١٤٩٢)، ولكنه يشير فحسب إلى : «وعلى حين رحل عدد من كبار القواد المسلمين ومشهوريهم، الذين جاءوا فى خضوع ظاهر أمام المدرس المذكور، حتى بلغوا أحد القصور قرب مدينة غرناطة، ويسمى قصر الحجارة Ahxares. وأوصلهم المدرس والاستاذ العظيم حتى العودة إلى البيت الملكى فى مدينة غرناطة المذكورة، ويسمى الحمراء.

ولا نجد شيئًا يتصل بهذا فى مدونة برنالديث، واقتصر بدرو مرتير، وثملك سلسلة من الرسائل التى كتبها فى غرناطة منذ عام ١٤٩٢، على صيحات الاعجاب، وقال عن القصر الملكى فى الحمراء، أنه وحيد فى العالم.

(٦٤) Naugerii, opera, 364

والأخبار والمعلومات الواردة فى كثير من الكتب، وتتصل بأقسام الحمراء التى هدمت تقوم كلها على أسس واهية. وعندما يقال أن الساحات والقاعات التى لا تزال قائمة كانت تقوم إلى جوارها أخرى متصلة من =

وبخاصة إذا استبعدنا الأبراج التى تقع على مسافة بعيدة فى ساحتين كبيرتين، وساحة البركة، مع برج قمارش، الذى يبدأ المدخل من عنده، وبهو الأسود، والقاعات المحيطة به، وكل واحدة من هذه الساحات، بأبراجها المتصلة بها، والقبة، والحجرات الأخرى يطلق عليها اسم القصر[٦٥]، أى أن الجانب الذى ظل قائمًا من الحمراء حتى الآن، طبقا للذوق العربى، يتمثل فى قصرين. ونفهم من النقوش التى فيه أنه ينتمى إلى عصرين مختلفين: العصر الذى أسس فيه القصر وأقيم البناء، والعصر الذى تمت فيه الزخرفة. وفى بهو الريحان وبرج قمارش يسود اسم يوسف أبى الحجاج، وفى الأمكنة الأخرى نلتقى باسم محمد الخامس الغنى بالله، ومع ذلك فإن زخرفة الملاط التى على الجدران يمكن أن تكون قد جددت، لأن النقوش التى عليها لا تشهد على أى حال إلا بأن بناء العمارة التى توجد فيها يعود إلى الأمراء الذين ترد أسماؤهم فى هذه النقوش.

وكان الباب الرئيسى للقصر، فيما يحتمل، نحو الجنوب، حيث يوجد البناء المؤسف الذى أقامه كارلوس الخامس، ودون شك فإن هذا الباب، ومثله فى ذلك كل السور الخارجى، وطبقًا للطريقة المتبعة فى المشرق فى بيوت الأمراء والخاصة، يتيح للمرء أن يشك قليلا فى تصور الفخامة والروعة التى يمكن أن يكون عليها البناء من الداخل. ويلاحظ هذا بطريقة واضحة فى السور، وفى الباب الذى ندخل منه الآن إلى القصر. ولكن من يمضى قدمًا فى الساحات لأول مرة لا يستطيع أن يتحكم فى إعجابه العميق أمام العالم الفاتن الذى يجد نفسه فى وسطه فجأة للمرة الأولى. ولأن آلاف الزخارف والرسوم تثير الإعجاب فى الحمراء، فإن ذلك

= الجانب الغربى، فإن هذا النظام الهندسى يختلف تمامًا عما نعرفه فى القصور المشرقية. والفكرة التى تتردد فى كل مكان، من أن غرف ملوك غرناطة الشتوية تهاوت أرضًا تناقض ما أورده مرمول، وطبقًا له فإن الحجرات التى كانت حول ساحة الأسود تكون حجرات الشتاء: «والقصر الثانى، ويوجد فى الجانب الشرقى يدعى بهو الأسود، والنافورة الجميلة التى فى وسط الساحة وهى مبلطة كلها بالرخام المعرق، وذات أعمدة جميلة حولها، تقوم عليها سقوف القصور والقاعات. وفى هذه الساحة الحجرات، وغرف النوم، والقاعات الملكية، ويقيم فيها الملوك شتاء، وهى ليست بأقل تكلفة من برج قمارش». ثورة الموريسكيين، الكتاب الأول، الفصل السابع.

(٦٥) ويظهر هذا بوضوح صحة ما قاله مرمول فى الفصل الذى أشرنا إليه فى الهامش السابق، ويظهر أيضًا لماذا كان كل جانب من جوانب قصور الخلفاء فى قرطبة يعد قصرًا كاملا ومستقلا، وهكذا نجد قصر السرور، وقصر التاج.

كله يعطى فكرة عن الجوانب الرئيسية والأشكال المعمارية، لا عن الخصوصيات أوالتفصيلات التى تتلاقى لتكون مجموعة متناسقة، ونابضة بالحياة، ومهما أسرفنا فى الخيال لا يمكن أن نضيف حالات أخرى تجعل من هذا البناء عملا وحيدا فى العالم.

تقع قصور الحمراء فوق صخرة وعرة المنحدر، وسط مناظر طبيعية بالغة الروعة، وتقف الشرفات على انحدار صعب وعميق، وتتوسطها جداول موشوشة تنحدر من الجبال، ويتصاعد منها أريج الغابات ذات الزهور العبقة، والنظر من خلال الشرفات والنوافذ البارزة قليلا إلى الجبال لامعة تغطيها الثلوج، أو الحقول زاهية تكسوها الخضرة، جوهرى لتفسير هذه الفتنة الساحرة التى تستولى على مشاعرنا وحواسنا، وتسلبها، وتسيطر عليها أكثر، عندما نتوقف متأملين مدة أطول، ونعود إليها مرات ومرات. ويضاف إلى هذا الطراز الفاتن للقاعات والأبهاء روعة الأضواء وموميضها، وتقلبها، وتسربها عبر الساحات من خلال زرقة السماء الفياضة بالجمال، أو تندس شفقا خافت اللمعان من خلال فتحات القباب المزخرفة. وترى الأعمدة دقيقة، والعقود رائعة، ويقال أن التخلص منها ممكن فى لحظة، وتتدلى من فوقها السقوف، كما لو كانت معلقة حقا، وليست قائمة على أعمدة. وأخيرا تحاصرك وشوشة المياه، ونسائم الصيف الخفيفة، تعبق بأريج الورود والرياحين، ولا تستطيع ريشة أى فنان أن تعطى فكرة دقيقة لهذا العالم الفاتن، وجديرة به، فكيف نستطيع أن نحقق ذلك عن طريق الكلمات!.

وإذا أخذنا فى الحسبان كثرة النقوش الممتازة، ودقة الزخارف الجميلة، والقرون التى مرت عليها، فإنه ليبدو معجزة أن هذه الزخارف احتفظت برونقها وبهائها كاملا داخل القصور العربية الملكية، ولو أنها عانت دائمًا من تقلب فصول العام. ومع ذلك، ليس من الصعب علينا إذا استخدمنا الخيال، فى هدى من الجوانب التى لم تتعرض لأى تلف، أن نتصور ما كان عليه مجموعها فى حالتها الأولى.

وقد رصفت الأرض بألواح الرخام الأبيض، وتمتد حاشية من القيشانى الملون على الجزء الأسفل من الجدران، وترتفع بمقدار أربعة أقدام، ويغطى الملاط بقية الحيطان فوقه، وبعد ذلك يقوم إفريز على أعمدة صغيرة أحيانا، يستريح السقف

عليها، ويتكون هذا من قطع صغيرة من الخشب مطعمة، ومن أشياء أخرى مرصعة، سواء كانت خلايا أو مسلات بارزة من الملاط، أو مركبة تأخذ شكلا متدليا.

وأعمدة الرخام دقيقة الشكل، وذات تيجان متنوعة الرسوم بلا حد، تحمل فوقها أفاريز ترتكز عليها الطنف، وبين هذه الأفاريز ترتفع العقود، وصنعت من هياكل خشبية مغطاة بالجير، ويغلب على العقود عادة أنها شبه دائرية، مرتفعة قليلاً، وتميل شيئا إلى تقليد جوانب العقد الحدوى، وتبدو مع كل هذا مدببة فى الأعم الأغلب، بفضل الملاط الذى يغطيها. وثمة تجاويف متعددة الأنواع، متعمقة فى الجدران، وتكسو الأحجام الكبيرة منها المقاعد الخشبية والمخدات، وتستخدم للراحة، وتسمى حنية. ويوجد فى الصغير منها ويسمى طاقة أباريق أو جرار فيها ماء. وتتناثر الزخارف فى فيض مسرف، وتنوع مذهل، فى كل أنحاء القصر، على الجدران، أو فى السقوف، أو فوق الأعمدة، أو فى الحنيات والبوائك. ويتجمع القيشانى ويتوافق، مكونا أفاريز فى أسفل الجدران، وزخارف مفرغة، وتزاويق متشابكة، ذات ألف لون ولون. وهناك زخارف مفرغة فى الرخام، بالغة التنوع، وأخرى ناتئة رائعة. والملاط الذى صنعت منه الزخارف البارزة تكسوه متاهة من الخطوط المنقوشة، تبدو أمام الناظر كما لو كانت منظارا سحريا.

وتلتقى فى القصر بكل ألوان التركيبات الهندسية، من نجوم، وتثمينات، وأشجار، وزجاج ملون، ونسخ هذه الزخارف حقيقة من الصعب إدراكها، والدقة التى نفذت فيها تجعلنا نعتقد أنها عملت بقوالب، ولكن لسنا على يقين من هذا، وقد وصف لنا ابن خلدون، فى الفصل الذى أوقفه على «صناعة البناء»، الطريقة التى كانت تستخدم عادة فى عمل الزخارف البارزة على الجدران، وشهادته ذات وزن كبير، لأنه عاش زمنا طويلا فى بلاط محمد الخامس، الملك الذى يعود إليه الفضل فى جانب كبير من زخارف الحمراء[٦٦]، ولكن شرح ابن خلدون غامض إلى حد كبير فيما يتصل بهذه النقطة، عندما يقول: «ومن صناعة

(٦٦) المجلة الآسيوية، ١٨٤٤، ٥٦/١.

البناء ما يرجع إلى التنميق والتزيين، كما يصنع فوق الحيطان الأشكال المجسمة من الجص، يخمر بالماء، فيشكل على التناسب بمثاقب الحديد، إلى أن يبقى له رونق ورواء»[٦٧].

وفضلا عن الزخارف التى أشرنا إليها يمكن أن نضيف ألوانا لا حصر لها من النقوش الدقيقة، تمتدعلى طول الأفاريز، كحواشى للعقود والشمسيات والحنيات، أو التجاعيد الهندسية، وتم تنفيذ هذه النقوش كلها بأسلوب يشبه الأسلوب المستخدم فى بقية الزخارف، حتى أن العيون ذات التجربة المحدودة، والخبرة القليلة، يمكن أن تتصورها رسوما أرابسكية Arabisque. وأخيرا فإن الانطباع الرائع الذى تثيره كل هذه الزخارف يتحقق، وبقوة تخطف البصر، من خلال الرسوم الرائعة، ذات الذوق الرفيع. وتوجد فى كل جوانب القصر ثروة غنية من الألوان تنتشر فى بذخ واسراف، ويغلب من الألوان على ما هو مرتفع منها، ويتميز بقوته وحيويته البالغة، الأحمر، أو الأزرق، أو الذهبى. ويسود فى الوسط اللون البنفسجى، والأرجوانى، والبرتقالى، وحتى ألواح الرخام البيضاء، التى رصفت بها الأرض كانت منقوشة فيما يبدو.

● ساحة الريحان :

وساحة الريحان أو البركة تستقبل الداخل[٦٨]، وتحييه بكلمات «السعادة» و «البركة» و «والازدهار» و «الصحة الباقية» و «والحمد لله على نعمة الإسلام»، وهى كلمات تبرق على الجدران. وثمة حوض كبير تحيط به سياج من أشجار الريحان الحية النضرة، وتنعكس العقود فى عمقه، ومن عمود إلى آخر يمتد قيشانى الحنيات، وبريق التوريقات المفرغة فى الجدران، وتوجد العقود فى أصغر جوانب الساحة فحسب، وصف من الأعمدة على يمين الداخل، تحمل فوقها قاعة ثانية، ويمكن أن نستنتج منها أن جانبا من القصر الذى هدمه هنا كارلوس الخامس كان يتكون من طابقين. وتجىء النقوش هنا فى شكل أكاليل من شجر اللبلاب تتثنى

---

(٦٧) ابن خلدون، المقدمة، ٣٢١/٢، طبعة القاهرة ص٤٠٨.

(٦٨) انظر الملحق رقم٦، آخر الكتاب.

على امتداد الجدران والعقود، ويحدث الشيء نفسه فى بقية أمكنة القصر الأخرى، وتحيى الزائر على نحو ما أشرنا، أو تحتوى على آيات من القرآن مثل : ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾. ﴿قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات فى العقد، ومن شر حاسد إذا حسد﴾. أو تضرعات وتوسلات مثل : «النصر والتمكين، والفتح المبين، لمولانا أبى عبد الله أمير المؤمنين». أو أشعار كالأبيات التالية، وتوجد فى القاعة الشمالية، وتمدح من استرد الجزيرة الخضراء[٦٩]، ولا نعرف أكيدا من هو هذا الملك :

تبـارَكَ من ولّاكَ أمْـر عبـادِه ... فأولى بك الإسلامَ فضلاً وأنعُمَا
فكم بلدةٍ للكفرِ صبَّحتَ أهلَها ... وأمسيْتَ فى أعمارِهم متحكما[٧٠]

[ومنها عن يمين الباب الشمالى المفضى إلى البهو المجاور :]

ولـو خُيِّر الإسـلامُ فيما يـريـدُه ... لما اختار إلّا أنْ تعيشَ وتَسْلَما
لقد لاحت أنوارُ الجلالِ ببابك ... يفـترُّ منها النـدى بِشْرًا وأبْسُـمَا
وتلك آثـارُها فى كـل مَكْـرُمَـة ... أبـدى وأوضحَ بَـدْرٍ إذا انتـظما

[وعن يسار الباب] :

فيا ابن العُلى والحلمِ والبأسِ والندى ... ومن فَاقَ آفاقِ النجوم إذا انْتَمَا
طـلعْنَ بـأفـقِ المـليـكِ رحمـةً ... ليجلو ما قد كان بالـظلم أظلما
فأمَّنْتَ حتى الغصنَ من نفحةِ الصَّبا ... وأرهبْتَ حتى النجومَ فى كَبِدِ السَّما
فإنْ رعشتْ زُهْرُ النجومِ فخيفةً ... وإنْ سال غصنُ البان شُكْرك نَمَّا[٧١]

---

(٦٩) طبقا لما أورده اميليو لفونت القنطرة فى كتابه : «النقوش العربية» حيث نرجم هذه الأبيات، فإن الملك الذى حاول الاستيلاء على الجزيرة الخضراء كان محمدا الخامس، وقد استولى الفونسو الحادى عشر على هذه المدينة عام ١٣٣٤م، وأصبحت فى يد المسيحيين، وكان ملك غرناطة فى ذلك الوقت أبو الحجاج يوسف الأول. (خوان بالبرا)

(٧٠) بعد هذه الأبيات أورد المؤلف ترجمة ثلاثة أبيات اخرى، ولم استطع الاهتداء إلى نصها، ولم أره مفيدا ترجمتها نثرا. (المترجم)

(٧١) عدد كبير من أبيات هذه القصيدة جار عليه الزمن اليوم، فلايمكن قراءتها بسهولة، مثل البيتين الأولين من الشطر الخامسة، وكل أبيات السادسة والثامنة، وقد ترجمها شك كلها إلى الألمانية، وتابعنا ترجمته مستعينين بترجمة ونسخ ألونسو دل كستيو لها، وكانت النقوش على أيامه واضحة تماما، ويمكن أن تقرأ كلها، وقد اعتمدنا على اميليو لفونت القنطرة، وأكد لنا كل هذا. أنظر كتابه : النقوش العربية فى غرناطة (خوان بالبرا)

وهذه النقوش وهى للتحية، أو تمثل شعار بنى نصر، أو غيرها، وتحتوى على كلمات قليلة، مكتوبة فى الخط الكوفى، على حين أن الآيات القرآنية والشعر كتبت فى خط الرقعة، وجاءت مشكولة(٧٢).

وفى الجانب الشمالى من ساحة الريحان يوجد برج قمارش القوى، وجاء اسمه قمارش من مكان يعرف بهذا الاسم قريبا من مالقة، ربما لأن سكان المكان المشار إليه هم الذين بنوه، أو كانوا مكلفين بالدفاع عنه(٧٣).

لدخول هذا البرج علينا أولا أن نعبر بوابة، يوجد على جانبيها حنيات صغيرة، ويظن بعامة أنها كانت لحفظ النعال، وعلى زوّار القصر أن يخلعوها قبل أن يدخلوا الغرفات طبقا للعادات الشرقية، غير أننا نعرف أكيدا أن مثل هذه الحنيات لا توجد عند مداخل الأبواب فحسب، وإنما نراها أيضا فى العقود التى بين مختلف القاعات، وتأتى على الفكرة التى أشرنا إليها من أساسها. وإذا أخذنا أيضا فى الاعتبار أن النقوش التى تزين الحنيات تتحدث غالبا عن الأكواب والأباريق، وعن إطفاء الظمأ وغيرها، بدا لنا من المؤكد أنهم كانوا يضعون فيها أباريق أو دنانا مملوءة بالماء.

= ● الواقع أن هذه الأبيات جزء من قصيدة تبلغ ٩٠ بيتا، لأبن زمرك، أنشدها السلطان فى ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، عقب مافرغ من البنية الشهيرة ببابه، ويذكر المقرى أن لسان الدين سرد هذه القصيدة بطولها، ولكن المقرى لم يورد منها غير بيتين هما مطلعها، وكذلك فعل لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه الاحاطة، ولعل إشارة المقرى كانت وهما منه، أو لعله رآها كاملة فيما لم يصلنا من مخطوطات ابن الخطيب، أو فيما لايزال مخطوطا، والبيتان هما:

تأمّل اطلال الهوى فتألّما ... وسيما الجوى والسقم منها تعلّما
أخو زفرة هاجت له نار ذكرة ... فأنجد فى شعب الغرام وأتهما

(المترجم)

(٧٢) حاول خوان بالبرا، المترجم الاسبانى، ان يلقى مزيدا من الضوء على قضية النقوش هذه وهى معقدة، وهو غير مستشرق، يكتب اعتمادا على غيره، فجاءت ملاحظاته قاصرة، ورأيت من الأفيد للقارىء أن أحيله إلى أحدث بحث وأوجزه، كتبه عنها عالم مستشرق ضليع، إميليو غرسيه غومث، فى كتابه الذى ترجمناه له بعنوان: مع شعراء الأندلس والمتنبى، ص٢٤٣، الطبعة الرابعة، دار المعارف بالقاهرة، عام١٩٨٥. (المترجم)

(٧٣) المقرى، نفح الطيب، ٢٨٢/١ - ٢٨٤، طبعة أوربا. وطبقًا لمرمول كربخال، فى كتابه «ثورة الموريسكيين»، الفصل السابع، الكتاب الأول، فإن كلمة قمارش لها أصل آخر: «الأول والأهم غرفة تسمى قمارش، وهو اسم برج رائع الجمال، غنى بالزخارف فى داخله، على نحو باهظ النفقات، ويشبه كثيرًا، ما كان سائدًا بين الفرس والسوريين ويدعى Comaragia.

ويشغل الرواق الجانب الأمامى من البرج، أو قاعة البركة، ويسمى عادة قاعة انتظار البركة، وتردد نقوشه كثيرا الآيات التالية من سورة الصف : ﴿نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾، ولا تستطيع أن تجد فى هذه القاعة الرائعة فترا واحدا ليس مليئا بالزخارف، كما لو أن العبقرية طرزت الحجر، وصنعت منه نسيجا جاء فى شكل سجاد، وطرزته كما لو كان «دنتلا». والأفاريز، والجدران، والعقود والسقف، كلها مغطاة بأكاليل الغار، والأزهار، وزخارف فى شكل الورود، متنوعة الأشكال، وأوراق وأغصان، وكلها جاءت فى أدق فن، وأكمل روعة، ويبدو منظر ساحة الريحان كما لو كان من خلق الجن، بمياهها الصافية وأعمدتها المرمرية السامقة والتى تعتمد عليها الأسقف وتقوم عليها العقود مثل ستارة رائعة تتدلى من السقف، وطرزت فى ثراء وروعة. وثمة قباب فخيمة هنا وهناك ويطلق عليها العامة الآن اسم قاعة السفراء وكانت - إذا شئنا الدقة - قاعة الاستقبالات أو العرش، وتطل شرفاتها على الوادى، وعمق نهر الدارو، وتقدم منظرا طبيعيا يفوق جماله الوصف. ويغلب عليها ضوء نصف غامض، يظهر فى نعومة فوق الجدران التى تكسوها الزخارف فى غنى، وتتشابك خطوطها فى ألف زخرفة وزخرفة، جامحة الخيال، تسخر من كل محاولة لوصفها. وكثافة الحيطان مدهشة، وتضفى على النوافذ السبعة، التى تحتل ثلاثة جوانب من القاعة، مظهر الغرف الصغيرة. وهناك، فى أعلى، يتسرب الضوء مرتجفا خلال سلسلة من الشمسيات، وفوقها يرتفع السقف مبطنا بخشب الأرز[٧٤] وتفصل بينها قباب صغيرة، وغرف، ومن حافتها التى تلتقى مع جدران القاعة تتدلى قطع من الملاط تبدو كما لو كانت سقفا متدليا أو زجاجا. وبين نقوش قاعة الاستقبال هذه، وهى ملكية حقا، يجدر بنا أن نشير إلى النقش التالى. ويوجد فى الجانب الشمالى، فى مواجهة عقد المدخل، وتتحدث القاعة الوسطى حيث كان العرش :

تُحيِّيكَ من حين تصبحُ أو تمسى ثغورُ المنى واليمنِ والسعْدِ والأنسِ
هى القبَّـةُ العُليَا ونحنُ بُنـاتُهـا ولكنَّ لى التفضيلَ والعزُّ فى جِنْسِ

---

(٧٤) يقول ميجيل لفونت عن هذا السقف : إنه رائع، من قطع الخشب المرصع، متعدد الألوان، بيضاء وزرقاء ومذهبة، تشكل دوائر وتيجانًا ونجومًا وشهبًا، وتقلد قبة السماء. (خوان بالين)

جوارحُ كنتَ القلبَ لا شكَّ بينها ... وفى القلبِ تبدو قوةُ الروحِ والنفسِ
وإن كان أشكالِى بروجَ سمايها ... ففى عَدا ما بينها شرفُ النفس
كسانىَ مولاىَ المؤيدُ يوسفُ ... ملابسَ فخرٍ واصطناعٍ بلا لبس
وصيَّرنى كرسىَّ ملكٍ فأيَّدتْ ... علاه بحقِّ النورِ والعرشِ والكرسى

وفى أبيات أخرى تجرى مناظرة بين الحنيات التى فى المدخل، وكان فيها أباريق مملوءة ماء، وما فوقها أكثر جمالا وامتيازا، تقول الحنية التى على اليمين:

فقتُ الحسانَ بحليتِى وبتاجى ... وهوتْ إلىّ الشهْب فى الأبراجِ
يبدو إناء الماءِ فىَّ كعابدٍ ... فى قِبلةٍ المحراب قام يُناجى
ضمنتْ على مرِّ الزمانِ مكارمِى ... ذى الأوامِ وحاجةِ المحتاج
فكأننى استقريتُ آثارَ النَّدى ... من كفِّ مولانا أبى الحجاج
لا زال بدرا فى سمايى لايحُا ... ما لاحَ بدرٌ فى الظلام الداجى

وتجيبها التى على اليسار على النحو التالى:

رَقمتْ أناملُ صانعى دييباجى ... من بَعْدِ ما نظمتْ جواهرَ تاجى
وحكيتُ كرسىَّ العروشِ وزدتُه ... أنى ضمنت سعادة الأزواج
من جاءنى يشكو الظماء فموردى ... صِرْفُ الزلالِ العذْبِ دون مزاج
فكأننى قوسُ الغمامِ إذا بدا ... والشمس مولانا أبو الحجاج
لا زال محروسَ المهابةِ ما غدا ... بيتُ الإله مثابةَ الحُجَّاج

انتهت أمكنة القصر التى عرضنا لها حتى هنا، ويمكن أن توازن بينها وبين تلك التى توجد شرقى المدخل، وليس سهلا أن ندخل هناك دون أن نعتقد ونشعر أننا اختطفنا إلى عالم الأحلام، غير أن أضغاث الأحلام هذه تتلاشى سريعا عندما نرى ونفهم أن كل جوانب البناء تبدى علمها، وتظهر حكمتها، وتعكس تناسبها الواضح، وأنها جميعا ككل، وكل واحدة كجزء، تؤدى دورها فى تناسق تام، مع المجموعة البديعة. والمهندس المعمارى الذى شيد تلك القاعات يجب أن يكون فى الحقيقة أستاذا ماهرا حتى يجعل الطبيعة تشكل جزءا من البللور، وهكذا فحسب استطاع أن يجمع فى حركة موقعة، كل الأعضاء المتباعدة، فى تأليف هندسى

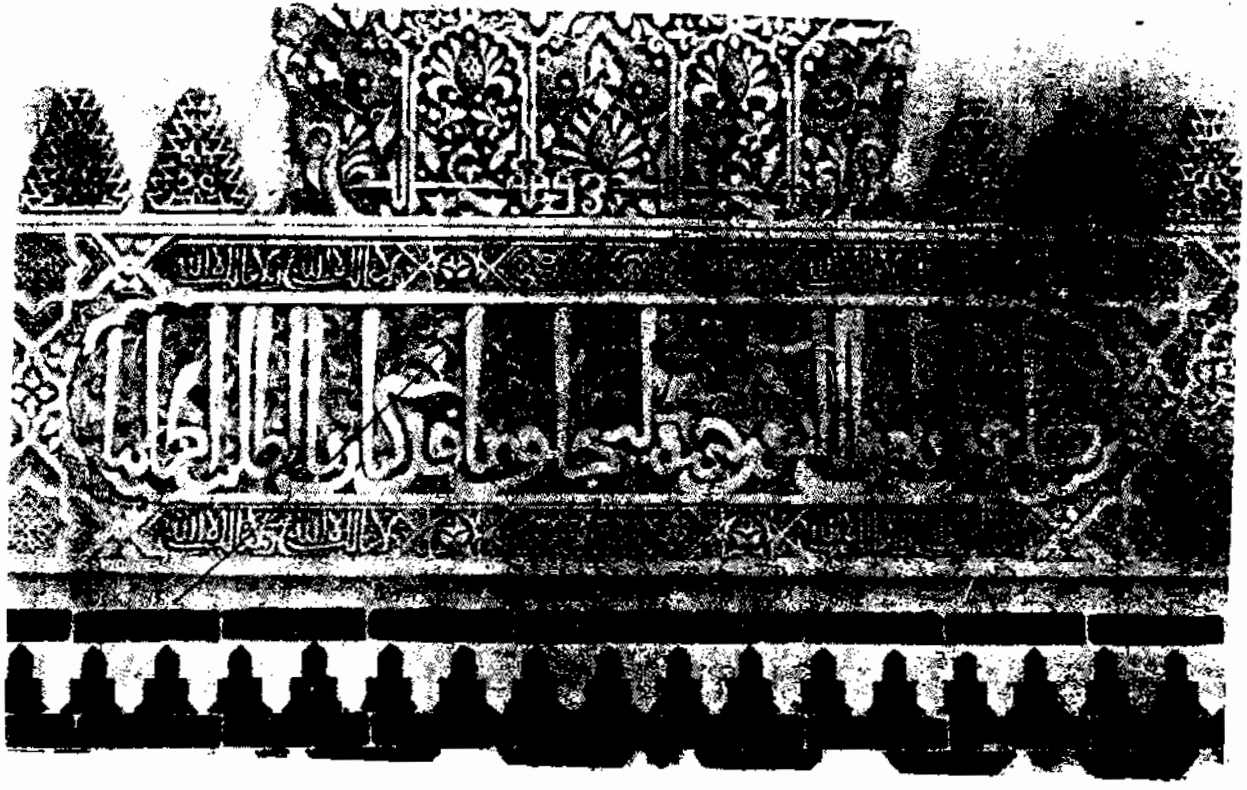

زخارف شعرية على أحد جدران الحمراء ولعل أصل البيت :

[illegible] ما قد كان بالظلم أظلما

بديع، وفى وحدة متناسقة، وأن يتجنب مايمكن أن يحدثه بريق الزخارف النضر من انطباع بأنه يحمل ما فوق طاقته، ولذلك جمع تأثيرات تلك الكثرة الوافرة من التفاهات والتفصيلات، لكى تحدث انطباعا عاليا تماما ومتسلطا.

● ساحة الأسود:

ساحة الأسود، واشتهرت فى الأساطير الشعرية، فراغ مربع واسع، يحيط به رواق من الأعمدة. ولتكوين فكرة عن عظمته القديمة، يجب أن نستشعر بناءه الأول تصورا، بألوانه وذهبه، وقد اختفت فى الجانب الأكبر منها، مع القيشانى اللامع، الذى يكون الافريز القائم على قواعد الجدران، والرسوم التى تتدلى من السقف، وهى مذهبة أحيانا، وفى وسط الساحة حوض كبير من الرخام الأزرق، صحنه سداسى الشكل، ويعتمد على اثنى عشر أسدا من الرخام أيضا، وماؤه يتصل بالماء الذى يجرى فى مختلف قنوات كل القصر، ويتدفق فى نافورة عالية، يقع ماؤها فى الحوض، ويعود إلى الخروج من أفواه السباع. وهذه الأسود، ومثلها أيضا تماثيل حيوانات أخرى، تظهر غالبا، على نحو مارأينا، فى قصور مسلمى إسبانيا وصقلية، ولكن هذه هى الوحيدة التى وصلتنا. وأعمدة الرخام رقيقة وخفيفة، وذات تيجان جديدة الشكل، ودائما متنوعة، وشاهد واضح على ابتكار الفنان الذى لايغلب، وتحمل منفردة أومجتمعة، فى أبهاء صغيرة ذات قباب مفرطحة، العقود التى تحيط بالساحة. وتظهر فى الأسقف والحيطان، وعلى كواتها المتنوعة، النجوم، والشعارات، وشخصيات مجسمة من كل نوع، إنها تركيبة بالغة الثراء من الزخارف والرسوم، ولاتستطيع العين إلا بالكاد أن تتابع هذه المتاهة من الرسوم المتشابكة.

وعلى الجانبين، كما قلنا، تتجمع العقود والأعمدة، وكل واحد منها يكون بهوا صغيرا، مرتفع السقف، مغطى كله بالملاط الخفيف ذى الزخارف المفرغة، أو التى تبدو مفرغة لرقتها، وهى تترك الضوء يتسرب ويعبر كما لو كانت شفافة. وحيثما توجه نظرك تجد الزخارف العربية الدقيقة تعطى الجص مظهر سجادة نسجت بفن ومهارة، وتمتد على السقف، وأطرافها على طريقة أكاليل الغار، مدلاة من

الجدران، فوق العقود. والفكرة فى ساحة الريحان تذكرنا بالحياة البدوية، وهى فكرة سيطرت على عملية إنشاء هذه الساحات، وعلى ينابيعها، ونوافيرها، وبركها، وقاعات الأعمدة التى تحيط بها، وإذا كان خيال الشاعر العربى يؤثر الإقامة فى الصحراء، وإذا كانت نقوش ساحة السفراء تمجد المياه الصافية كأفضل مرطب، وتبدو كما لوكانت تأخذ فى الحسبان سكان الجزيرة العربية وبلاد الشام الجافة، وذات الرمال الحارة، وليس سكان غرناطة التى يرويها العديد من الأنهار والقنوات، فلا نستغرب أيضا أنه ورد فى خاطر المهندسين العرب صورة راحة الظهر، أو«نومة العصر»، على حافة المياه، بركة أو حوضا، فأقاموا القصر على صورة خيام المعسكر، وبدلا من العصى وضعوا الأعمدة رقيقة وهيفاء، والسجاجيد ذات الألف لون ولون، والتى تغطى خيام الأمراء المشارقة، تحولت إلى جدران تكسوها الزخارف العربية، مع الملاط المجصص الذى يغطى العقود، ويتدلى من السقوف، وقلدوا حواشى وثنيات الشيلان، والنسيج، والنوافير التى توشوش فى وسطه، وتجرى مياهها صافية عبر كل القاعات، وسطح البركة لامعا ورقراقا، تحيطه الخضرة، والشجيرات ذات الرائحة العبقة، جاءت، أخيرا، تقليدا للينابيع فى الواحات.

ولكن الحمراء لا يجب أن تكون مجرد مكان للراحة فى الدنيا، يعكر صفوها ضجيج العالم، وإنما يجب أن تصبح أيضًا شيئًا سماويًا، ولهذا أقيمت فوق قمة مرتفع صخرى، حيث لا يصلها أى صوت أو صخب أرضى، وحيث لا يستطيع أى دخان أن يعكر صفو هوائها، وطيبته ونقائه، وحيث يهبط ضوء عذب الجمال، كضوء أعلى السموات السبع، ملتهبًا مثل تيار دافق، من قبتها السماوية المفرطحة.

● ساحة الأختين:

وفى الجانب الشمالى من ساحة الأسود توجد جوهرة القصر كله: تربيعة tarbea، ويسمونها ساحة الأختين، ربما لوجود حنيتين فيها، وربما لاستخدام لوحين من المرمر فى رصفها. وأبوابها من خشب الأرز، مرسومة ومذهبة فى أزمنة أخرى، وتعد لثراء ترصيعها ودقته ولطفه، أدق ما نعرف من هذا النوع. ويتميز

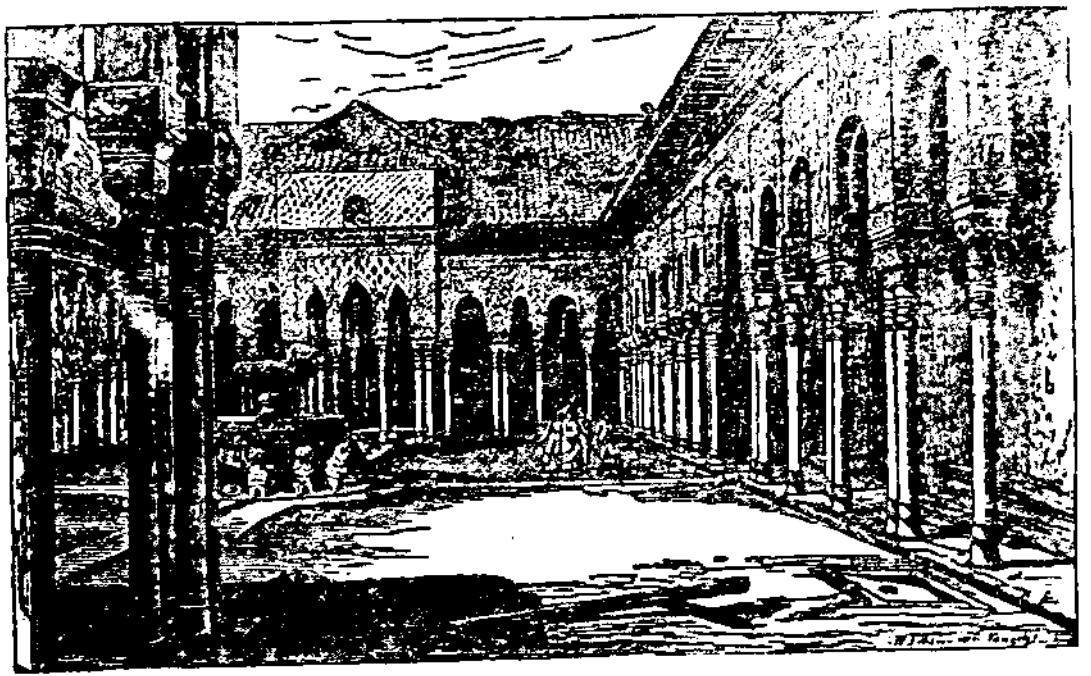

ساحة الأسود فى الحمراء

داخل الساحة بوفرة قيشانية، وجمال ترصيعه على بقية القصر، والأفاريز، والجدران مغطاة بالملاط، وجوانبها المختلفة، والأعمدة، والأفاريز، حافلة كلها برسوم رائعة، من النجوم والحواشى المطرزة، والزهور والتضليعات، تغطيها كلها، وتتقاطع أطرافها وحواشيها وتتشابك، وتخلق أشكالا وأشكالا جديدة، ويمكن القول أنها لا تنفد أبدًا وكلها تتنافس فى الأناقة واللطف. وعندما نتابعها بالعقل، ونفهم هذا القدر الكبير من الرسوم الرائعة، وتومئ إلى خيال ممتاز وثرى، وندرك فى فطانة نظامها والوسائل التى استخدمت فيها، يبدو لنا فى كل لحظة أن الفنان الذى قام عليها استنفد واستهلك كل التركيبات التى يمكن تصورها، ونتأمل دائمًا فى دهشة كيف تتدفق التكوينات الجديدة من أخرى قديمة.

وفى أعلى، ترتفع التربيعة على عمد صغيرة، وعقود وأصداف فى شكل مثمنات، وجاءت فى أدق الطرق الفنية وأمهرها. وثمة سلسلة من التفصيلات الدقيقة، لا يوجد بينها من لا ينافس الآخر ثراء ودقة زخارف، وأخيرًا تجذب القبة أنظارنا، وجاءت فى شكل سقف متدل، ومن خلال شمسياتها يتسرب الضوء خفيفًا، مرتجفًا، ومفتتا. ويكمل سحر المجموعة. ويحار المرء فى هذه القاعة: بأى أجزائها يعجب أكثر هل يعجب بهذا الفيض الدافق من التفصيلات اللطيفة الجميلة، أم بالزخارف اللامعة، أم بهذا التوافق فى النغم، صائبًا وحكيمًا، ويصدر عن الجميع، ويمكن أن نؤكد فى حسم وثقة أن فن المعمار لم ينتج أبدًا أى عمل آخر يسبق، أو يفوق، أو يعلو، فى البريق الخاطف، والدقة والتناسق بين كل أجزائه، ما فى ساحة الأختين هذه.

وهناك، نحو الشمال، يوجد ما يسمى بغرفة الأمراء Cuarto de los infantes، أو منظرة لندراخا[٧٥] Mirador de Lindraja وسميت كذلك لأنها تطل من خلال شمسيات العقود الغنية بالزخارف على حديقة لندراخا الصغيرة، بنافورتها التى تطوقها أشجار الليمون. ومن الصعب أن يجد الإنسان مكانًا للراحة أكثر هدوءا

---

(٧٥) يقول الغرناطيون أن كلمة «لندراخا» هى تحريف لجملة «عين دار عائشة»، وأنها شخصية أخرى غير عائشة الشهيرة، والدة أبى عبدا لله الصغير، آخر ملوك غرناطة، وكلمة عين هنا تعنى النافذة. (المترجم)

وبهجة من هذا المكان : وشوشة النوافير، ولطف طراوة ظل الأشجار، على حين يتسرب بالكاد ضوء الشمس من خلال زخارف العقود المفرغة والرقيقة، وخطرات النسيم التى توشوش، وأريج الزهور التى تتناثر حوله، وكل شيء هنا ينعش الروح، ويفجر الأحلام الشاعرية، ويدفع بها إلى عالم رائع من الحكايات والحكم.

● قاعة بنى سراج :

وفى مواجهة ساحة الأختين توجد قاعة أخرى، بُنيت بالأسلوب نفسه، ولو أنها لم تسلم تمامًا من عبث الزمان، وتسمى قاعة بنى سراج لأن الروايات تجعل منها مسرحًا لموت ذلك الفارس النبيل، ويظنون أيضًا أن البقعة الحمراء التى لا تزال على رخام النافورة الأبيض، ظلت هناك شاهدًا وعلامة على ذلك الدم البرىء الذى أريق ظلمًا[٧٦].

وإلى اليمين من ساحة الأسود، على مقربة من القاعات التى كان فيها ملوك غرناطة يتمتعون بأجمل لذاذات الحياة وأشدها ترفًا، توجد مقابرهم، ولكنها تلاشت اليوم تمامًا[٧٧].

وشرقى هذه القاعة نفسها، بعد أن يمر المرء بثلاثة عقود كبيرة يصل إلى قاعة الشريعة، وتتميز بمعمارها الثرى والبهى، وبزخارف الملاط التى تتدلى كالسحب من عقودها، وبثلاثة رسوم تزين الغرف الثلاث التى فى الحائط الجنوبى. وهذه الرسوم الثلاثة على الجلد، ومعلقة فى القباب أو فى ميل السقف. والرسم الأوسط فوق أرضية مُذهبة، ويصوّر عشرة رجال فى ملابس بيضاء، يلبسون عمائم، وأسند كل واحد منهم ذراعه إلى خنجر، وجلسوا على حشايا مطرزة. ويقول عنها مندوثا

---

(٧٦) الاعتقاد بأن هذه العلائم الحمراء على الرخام بقايا دم كانت معروفة فى غرناطة بعد استيلاء المسيحيين على المدينة، وورد هذا فى : أشياء غرناطة، لمؤلفه هرناندو بابيثا، ص ٦٢، غير أنهم كانوا يعتقدون إذ ذاك أن هذا الدم لأمير شاب من الأسرة الملكية الغرناطية اغتيل فى هذا المكان، انظر مرمول، ثورة الموريسكيين، ص ١٣٩.
وفى «رحلة روخاس المتعة»، وقام بها عام ١٦٠٢، يتحدثون عن بقع الدم هذه أيضًا، ويقولون أنها لما تزل طرية، كأن صاحبها قتل فى اليوم السابق. (طبعة ١٧٩٣، جـ ١، ص ١٥١).

(٧٧) مرمول، ثورة الموريسكيين، الفصل السابع.

Mendoza، وقد ولد فى غرناطة بعد استيلاء المسيحيين عليها بثلاث سنوات، وكان يعرف العربية الدارجة ضرورة، وبوسعه أن يعرف الحقيقة : «فى إحدى قاعات الحمراء رسم يضم صورة عشرة أشخاص، وهم ملوك غرناطة، وبعض أهل غرناطة من المعمرين يعرفون بعضهم». وطبقًا لهذا يتحدث أرجوت دى مولينا Argot de Molina عن غرفة فى الحمراء تضم صورة ملوك غرناطة، وشعارات سلاحهم(٧٨). وفى الحق يوجد فى أقصى طرفى الرسم شعاران، لونهما أحمر، مع حزام مذهب. ويبقى رسمها حتى يومنا، وليس ثمة مجال للشك فيما يتصل بالموضوع الذى تمثله، ولكن أدلاء السياحة، وربما السياح أنفسهم، يعتقدون أن هؤلاء الأشخاص يمثلون قضاة المحكمة، ولهذا يطلقون عليها قاعة الشريعة، وكلها افتراضات تقوم على معلومات خاطئة.

والرسمان الآخران يمثلان مشاهد بالغة الإثارة لمغامرات صيد وحب، وفيها يظهر مسيحيون ومسلمون. وفى الرسم الذى على اليمين يظهر بناء قلعة، ذات أبراج من الطراز القوطى، لأن المشهد يجرى فى أرض مسيحية، وفيه نرى سيدة معها أسد مقيّد. ومخلوق ضخم، فى صورة إنسان، ولو أنه كث الشعر كحيوان، يأسر السيدة، ولكن فارسًا مسيحيًا يجىء لتحريرها، ويصرع هذا الحيوان الهائل المخيف. وثمة حصن أيضًا بجدرانه وأبراجه، تطل سيدة من شرفة فيه على فارس مسلم، يطعن برمحه فارسًا آخر مسيحيًا، ثم نرى فارسين مسيحيين أولهما يصارع راجلاً أحد الأسود، والثانى ممتطيا صهوة حصانه ويقتل دبًا، وعلى بُعْد منهما يقوم بناء آخر فى صورة قصر، ويظهر فى أحد أبراجه فارس وسيدة، وأمامه يوجد أشخاص آخرون جالسون يلعبون الشطرنج. وأخيرًا، ثمة عربى على ظهر جواده يصطاد أيلا.

ورسم الغرفة الصغيرة التى على الشمال يعرض أولا ثلاثة فرسان مسيحيين يصطادون أسودًا ودببة، وأحد هؤلاء الفرسان يركع أمام سيدة، ويقدم لها دبًا اصطاده. ونرى فى المواجهة، إلى جانب نافورة أنيقة، سيدة أخرى وضعت يديها

---

(٧٨) منذوثا، حرب غرناطة، سلسلة ريبادنيرا، ص ٦٥ - أرجوت دى مولينا، نبلاء الأندلس، الكتاب الأول، الفصل ٩٧.

متقاطعتين، وتتحدث مع رجل، وعلى بعد منها فارس عربى صرع خنزيرًا جبليا jabali، وأتباعه من القناصين يحملون الجبلى المصاد فوق بغل، ويصحبه الفارس نفسه أخيرًا، وهو إلى يمين البغل، ويضع الجبلى تحت أقدام سيدة أخرى، وراءها قصر يضم شرفات وقاعات وأبراج، وهذه السيدة، ونساء أخريات يكوِّن حاشيتها، تبدو وكأنها خارجة من هذا القصر.

من الصعب أن نحدد معنى وموضوع هذين الرسمين، وفيهما فضلا عن المشاهد الرئيسية التى أتينا عليها، مناظر أخرى متنوعة حية، وموضوعات أخرى صامتة، ومع كل هذا يغلب على الظن، احتمالا، أن موضوع الرسمين مأخوذ من حكايات غرناطية معروفة، وكم كان العرب يحبون هذا اللون من القصص!

لقد كانت هواية الاستماع إلى القصص فى أسبانيا أعمق مما عليه فى أى مكان آخر، فيما يبدو، ويقول المقرى فى كتابه نفح الطيب: إن فن حكاية الأقاصيص، والحكم المسلية، كان وسيلة فعالة للدخول فى مجتمع ملوك وعظماء الأندلس[٧٩]. ومشاهد وجماعات هذين الرسمين هى: عرب يقتلون فارسًا مسيحيا فى مبارزة، وجماعات صيد وقنص، وهو أمر مشترك بين مختلف العقائد والنحل، وعذارى فى خطر، وفرسان يكرون لإنقاذهن، وهى موضوعات، بلا شك من ذلك النوع الذى تتسع له الحكايات العربية الإسبانية بكثرة. وعلى حين أن الرسم فيما يتصل باللون لا يومىء بالتأكيد إلى فن متقدم جدًّا، وإلى حد ما لا نكاد نلحظ فى المنظر أى وجه، ولكن الرءوس لا يعوزها التعبير، جوانب الوجه فى رسم الأشخاص تشير إلى لون من الحذق والمهارة فى الرسم، وهى شىء نادر عادة مع الخطوات الأولى فى ممارسة الفن.

والرأى الشائع فى كثير من الكتب أن الإسلام يمنع تصوير الكائنات الحية، وأن هذا التحريم قاطع ويعمل به كل المسلمين، أفسح الطريق أمام من يعتقدون أن هذه الصور من المحال أن تكون من عمل المسلمين، وهو رأى خاطئ ولسنا فى حاجة إلى دحضه وتفنيده من جديد، فقد أظهرنا فى أمكنة أخرى من هذا الكتاب، وبأمثلة كثيرة، أن المسلمين لم تكن تقف فى طريقهم أية عقبة، وفى كل

(٧٩) المقرى، ١/١٣٧.

العصور، فيما يتصل بمثل هذا اللون من التصوير. والأمثلة التى من هذا النوع كثيرة يمكن أن نجدها فى سهولة مذهلة، ولكنى سوف أشير هنا إلى مثلين أزيد فحسب كتأكيد لما أشرت إليه من قبل. فمن بين الهدايا الرائعة التى أرسلها هارون الرشيد إل شارلمان ساعة، يظهر فيها عند نهاية كل ساعة زمنية اثنا عشر فارسًا، كل واحد فى نافذة[٨٠]، وكان لدى الخليفة المقتدر بالله شجرة صناعية فى قاعة العرش، صُنعت من ذهب وفضة، على أغصانها أنواع مختلفة من الطيور، عُملت من الذهب والفضة أيضًا، وبطريقة تجعلهم يسمعون لها هديلا وغناء[٨١]. ويصف الشاعر ابن حمديس بركة فى قصر بناه المنصور بن أعلى الناس فى بجاية عليها أشجار من ذهب وفضة، ترمى فروعها المياه، وتفنن فذكر أسودًا على حافتها، تقذف بالمياه أيضًا:

وبديعة الثمراتِ تعبِرُ نحوَها ... عَيْنايَ بَحْرَ عجائبٍ مَسْجُورا
شجريةٍ ذهبيةٍ نزعتْ إلى ... سِحْرٍ يؤثر فى النُّهى تأثيرًا
قد صُولِحَتْ أغصانُها فكأنما ... قَنَصَتْ بهنّ من الفضاء طُيورا
وكأنما تأبى لواقع طَيْرِها ... أنْ تستقلَّ بنهضِهَا وتطيرا
مِنْ كلِّ واقعة ترى منقارَها ... ماءً كسلْسال اللُّجينْ نميرا
خُرسٌ تُعَدُّ من الفضاحِ فإنْ شدتْ ... جعلتْ تُغرِّد بالمياهِ صَفيرا
وكأنما فى كل غُصْن فضَّة ... لانتْ فأرْسِلَ خَيْطُها مَجْرُورا
وتريك فى الصَّهْريج مَوْقع قطرِها ... فوق الزَّبرجَدِ لؤلؤًا مَنْثورا
ضحكتْ محاسنُه إليكَ كأنّما ... جُعِلَتْ لها زُهرُ النجوم ثغورا[٨٢]

وفيما يتصل بالأندلس رأينا قبل كيف كان فى المسجد الجامع بقرطبة صورًا على أعمدة حمراء، ومن بينها صورة أهل الكهف، وكيف أن عبد الرحمن الناصر زين باب قصره فى الزهراء بتمثال لمحظيته، وكيف كان يلمع فى قصر الملك باديس فى غرناطة تمثال فارس مسلح من النحاس وكيف كان يزين قصور أمراء الأندلس،

(٨٠) Einhard, Annales ad annum, 807.

(٨١) أبو الفدا، ٣٣٣/٢.

(٨٢) القصيدة طويلة، وأورد المقرى ثمانية وأربعين بيتا منها، فى كتابه نفح الطيب، جـ ١ ص ٤٩١ - ٤٩٣، طبعة إحسان. (المترجم)

دائمًا تقريبًا، تماثيل أسود أو حيوانات أخرى، نحتت من الحجر، أو صيغت من المعدن. وفيما يتصل بالرسم فإن الاعتراض عليه أقل مما وجه إلى التماثيل لأن الآية رقم ١٩ من سورة المائدة: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا إنَّما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلام رجسٌ من عمل الشيطانِ فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾، إنما تحرم التماثيل، وأن الرسول حرم هذه فحسب، ويفهم الكثيرون من الآية أنها تشير إلى عبادة الأصنام لا غير[٨٣]. وبين المسلمين عدد ليس بقليل يرى تحريم تصوير الكائنات الحية على نحو يجعل لها ظلا[٨٤]، ويرى أن المحرم بوضوح كتحريم الخمر، وهى محرمة قطعًا فى الآية، أن ننحت تماثيل لأشخاص أو حيوانات من الحجر أو المعدن، أو غيرها. ولكن الاعتراض يصبح أقل حسمًا وصعوبة على رسم الأشياء نفسها. وليس ثمة شك فى أن العرب استخدموا الرسم كثيرًا لتزيين قصورهم وبيوتهم، ولم يقفوا عند حد رسم الطبيعة الصامتة. ولدينا من القرن الحادى عشر شاهد قاطع نجده عند الشاعر الصقلى ابن حمديس، وهو يصف قصر المعتمد بن عباد فى أشبيلية، فيقول:

ترى الشمسَ فيها لِيقةً[٨٥] تستمدُّها ... أكفٌ أقامتْ من تصاويرها شَكْلا
لها حركاتٌ أودعتْ فى سكونها ... فما تَبعتْ فى نَقْلهنَّ يدٌ رِجْلا
ولما عشيْنَا من توقُّد نورِها ... تَخِذْنَا سَنَاهُ فى نواظرنا كُحْلا[٨٦]

وفى قصيدة أخرى يصف الشاعر نفسه قصر المنصور فى بجاية، ونستنتج منها أن سقوفه كانت مزينة بالصور، يقول:

---

(٨٣) تطلق الأنصاب، جمع نصب، على الأحجار التى ترفع فى بعض الأمكنة المقدسة، وعليها يراق الزيت، طبقًا للطقوس التى كانت شائعة بين عدد كبير من الأمم القديمة، والكلمة نفسها استخدمت فى الآية الثالثة من السورة نفسها لتشير إلى أنصاب الوثنيين. والمسلمون المتشددون، الذين يلتزمون التقاليد فى صرامة، هم وحدهم الذين يجعلون الكلمة تتضمن التماثيل أيضًا، ومع ذلك فإن الفرس والهنود، وهم مسلمون، يفهمون معنى الكلمة الوارد فى الآية على نحو أشد تسامحا وتحررًا.

(٨٤) لين بول، المصريون المحدثون، ١/١٣٥.

(٨٥) ليقة، أى ملتصقة.

(٨٦) القصيدة التى أخذنا منها هذه الأبيات، والأبيات التالية لها، توجد فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

● ترجمنا الجزء الأول والثانى، وسيصدران قريبًا فى مجلد واحد بعنوان «الشعر العربى فى أسبانيا وصقلية».

(المترجم)

وإذا نـظرتَ إلى غرائبِ سقفِـه ... أبصرتَ روضًا فى السماءِ نضيرا
وعجبتَ مِن خُطَّاف عَسْجده التى ... حـامتْ لتبنىَ فى ذُراه وُكُـورا
وضعتْ بـه صُنّاعُـهُ أقلامَهـا ... فـأرَتْكَ كـلَّ طـريـدةٍ تصـويـرا
وكـأنمـا للشمس فيـه لِيقَـةٌ ... مَشَقُوا بهـا الـتزويق والتشجـيرا
وكـأنَّمـا بـالـلّازوردِ مُـخَـرَّمٌ ... بـالخطِّ فى وَرَق السماءِ سطورا
وكـأنمـا وَشَّـوْا عليـه مُـلاءةً ... تـركوا مكـانَ وِشاحهـا مَقْصُورًا

والحق أن رسمى الحمراء كانا يوجدان بالدقة فى السقف أيضًا، غير أن الصور التى كانت فى قصر المنصور رسمها فى القرن الحادى عشر الميلادى فنانون مقتدرون للغاية، وتمثل مناظر صيد تشبه كثيرًا تلك التى تشغل جانبًا كبيرًا من اللوحتين اللتين أشرنا إليهما من قبل.

ومن ثم لا يوجد أى سبب لكى نشك فى الفكرة القائلة بأن المسلمين هم الذين رسموهما، وكل أساس يقوم عليه رفض الفكرة ينهار فى ضوء ما قلنا. وليس ثمة سبب يدعو إلى أن ننسب هذين الرسمين إلى فنانين آخرين ليسوا من العرب، بل على العكس، كل الظروف التى أحاطت بهما تجعل القول بأنهما من عمل فنانين عربا أقوى احتمالا، وأقرب إلى اليقين، لأن الرسمين كليهما يمثلان المسلمين فى صورة المنتصر على المسيحيين، وهما فى أسلوبهما غير معروفين للفنانين المسيحيين، فقد رسما فوق جلود مطبوخة لصقت فى السطح، والزخارف التى تحيط بالصور، وزخارف أخرى فى الصور نفسها، تتفق تماما فى أسلوبها مع بقية زخارف الحمراء. وكل هذا يجعلنا نرجح بحق نسبتها إلى نفس الأشخاص الذين قاموا ببناء وزخرفة كل الجانب القديم من القصر.

أما الرأى المعارض فيقوم على عقيدة خاطئة قطعًا، وفندناها من قبل، وعمادها أن الإسلام يحرم رسم الكائنات الحية، ودقة الرسم البالغة فى هذه الصور، إذا قورنت بفن النحت الجاف فى أسود النافورة التى تحمل الاسم نفسه، لا تدعم الاحتمال الممكن فرضًا والقائل بأن الفنانين الذين أبدعوهما من الأجانب، لأن نحت الأسود يمكن أن يعود إلى زمن أقدم، أو أنها من عمل فنان أقل مهارة، أو - وهو الأكثر احتمالا - لأن الأسود نُحتت لتقوم عليها النافورة، ولم ير الفنان من

الضرورى أن يقلد فيها الطبيعة بدقة، واكتفى بإعطائها مجرد ملامح تقليدية فحسب، وفيما عدا ذلك، فإن هذه الرسوم، رغم كل ما اشتهرت به، ومهما كان إطراؤنا لها، لا تكاد تتجاوز مرحلة طفولة الفن، وبدل أن ننكر أن الذين أبدعوها من الفنانين العرب، لأنها تنطوى على قدر كبير من الجمال، يمكن أن نندهش لأن العرب بعد قرون طويلة من ممارسة الفن لم يبلغوا درجة عالية من المهارة فيما أبدعوا منه.

وأخيرًا فإن معارف أولئكم الذين يحاولون أن يكتشفوا فى لوحتى الحمراء هاتين أسلوب الرسامين الإيطاليين فى القرن الرابع عشر الميلادى، أو أسلوب نظرائهم من الإسبان فى القرن الخامس عشر، أو حتى من يردّونها إلى أستاذ فنان محدد، واهية بقدر لا يستأهل منا أية مناقشة أو تفنيد.

وعلى النقيض مما يقولون، نحن نلحظ للوهلة الأولى تشابهًا كبيرًا بينها وبين الرسوم، والتصاوير المائية، فى المخطوطات المشرقية، مثل كتاب النظامى، أو الفردوسى. ونلمح هذا التشابه فى لوحة الوسط واضحًا، ويتجلى بخاصة فى حيوية الألوان ودفئها، وفى غيبة المنظور واللون الغامق. ونلحظ هذا التشابه فى الرسم أيضًا وبخاصة فى رسم الخيل، ومن ثم فإن لوحتى الحمراء هاتين إذا لم تكونا من عمل فنان عربى، كما يغلب على الظن احتمالا، فيمكن أن تعودا إلى أصل فارسى، وهى فكرة لا يقف دونها أى اعتراض وجيه، فمنذ زمن قديم جدًّا ازدهر فن الرسم بين الفرس هواية، وأقبلوا عليه متحمسين، واستخدمهم الآخرون فى مثل ذلك النوع من التصوير، وطبقًا لابن بطوطة، كان فى غرناطة «جملة من فقراء العجم، استوطنوها لشبهها ببلادهم»[٨٧].

لا يمكن أن نعرض هنا لكل جوانب الحمراء، وإنّما نشير إلى ما كان منها جديرًا بالنظر ويسترعى الاهتمام. وسنقوم بجولة صغيرة بين المبانى المنعزلة، والتى توجد بين أسوار القلعة، وكانت قديمًا مرتبطة بالقصر فيما يحتمل، وأغلبها لا يزال حتى يومنا متواريًا وراء زخارف معمارية رائعة، مثل ما يسمى «بيت شانجة Casa de

(٨٧) ابن بطوطة، ٢٧٣/٤.

Sanch » ويطلقون عليه أيضًا اسم « منظرة الأمير Mirador del Princepe » وكانت أمامه من قبل بركة تشبه التى فى ساحة الريحان، ومن الطابق الأعلى فيه، وقد كسى بالقيشانى والملاط فى ثراء، يستطيع المرء أن يستمتع بمنظر وادى الدارو الفائق الجمال، وبجنة العريف على مقربة منه. والنقوش التى هناك، إلى جانب الجمل التى تُردد بكثرة عبارات عن « السعادة »، و« السعادة الباقية »، وتضم كثيرًا من الدعوات الطيبات مثل :

يـا بـقـتى يـا أمـلى أنت الرجا أنت الولى
فـيـا للنبى المـرسـل اختم بـخـير عـمـلى

وفضلا عن ذلك، فإن الجدران مغطاة بأبيات من الشعر، نصف مطموسة، وليس فى مكنتى فك طلاسمها وقراءتها. ومن المبنى الذى أشرنا إليه آنفًا، نصعد عبر انحدار الربوة الشمالى حيث الحمراء، فنلتقى بعدة أبراج أخرى متنوعة، أوضحها « برج الأمراء Los infantes » و « **برج الأسيرة** La Cautiva » وكلاهما يضم فى داخله غرفًا ذات زخارف بديعة، تنافس أجمل زخارف الحمراء. وبرج الأسيرة[٨٨] يضم فضلا عن ذلك جمهرة من النقوش تشير إلى أن السلطان أبا الحجاج يوسف هو الذى بناه، أو أمر بتزيين جدرانه، إلى جانب آيات من القرآن، وأبيات من الشعر.

---

(٨٨) يقول إميليو لفونت القنطرة : « توجد فى هذا البرج قاعة صغيرة وبديعة نسبها كثير من الكتاب والفنانين الذين وصفوا آثار غرناطة بالدقة وتفصيلا، ولا أعرف أن نقوشها كانت موضع دراسة، أو حتى أمكن فهمها، فى المجموعات التى نشرت حتى الآن. وطبقا لطابع زخارفها تنتمى إلى نفس العصر الذى بنى فيه برج قمارش، وتشير نقوشها إلى يوسف أبى الحجاج، سابع أمراء بنى نصر، ويرى بعضهم أن هذا البرج كان فيما بعد سكنًاللسيدة ايزبيل سوليس، ودخلت التاريخ تحت اسم الأميرة ثريا، وأحدثت غرامياتها مع الامير، وكانت جارية له، اضطرابات كثيرة وعنيفة فى البلاط الملكى، وأثارت الأحقاد والعداوات والدسائس، وأسرع هذا كله بالمملكة الغرناطية الضعيفة إلى الانهيار ». فضلا عن جمهرة الزخارف، والنقوش ذات العبارات التقية، والأشعار التى ترجمها شاك، فإن لفونت القنطرة أورد ثلاث قصائد وترجمها، كانت توجد فى هذه القاعة.

ويبدو لى أن شاك ترجم أقل هذه النقوش طمسًا وتشويها، وفى القصائد الأخرى كتلك التى يفخر فيها الشاعر بنفسه، « توجد نوريات ومجازات وجناس، وأبلغ آيات الإطراء على الملك يوسف فهو الأبهى جمالا والاعظم شجاعة، والأكثر علمًا وأدبًا، وأكمل الرجال. (خوان بالبرا)

● مسجد الحمراء والحمامات :

ونعود الآن إلى البيت الملكى، ومن الضرورى أن نقول شيئًا عن المسجد والحمامات. أما المسجد فقد قام كارلوس الخامس بتحويله إلى مصلى كنسى، وأصابه التشويه تمامًا، ولكن الواجهة إذا نظرنا إليها من الصحن، تتيح لنا أن نتعرف على أصله من خلال تفاصيل الزخارف الكثيرة التى لا تزال قائمة حتى الآن.

والحالة التى عليها الحمامات، وقد تحولت إلى أنقاض، تثير الأسى البالغ والحزن العميق، ويمكن أن نستنتج من بعض البقايا فحسب أن المرمر والفسيفساء والقيشانى استخدم فى زخرفتها بوفرة. ومن موقع الحجرات يمكن أن نتعرف إلى التقاليد التى كانت متبعة، ومازالوا يسيرون عليها فى حمامات المشرق حتى الآن، فنلحظ أن هناك غرفة للراحة، وفوقها قاعة، وربما كان يجلس فيها الموسيقيون، وأمامها فسحة مبلّطة بالرخام الأبيض، لأخذ حمامات البخار، وفى وسطها فتحات كثيرة فى شكل نجوم. وسلسلة من الحجرات والممرات بين قاعة قمارش وساحة الأختين، وهى حديثة تمامًا، ويطلق عليها غرفة «زينة الملكة»، وتعود فى حالتها الحاضرة إلى عصر كارلوس الخامس. وهذه الغرفة قاعة مفتوحة، تفيض بفتنة لا توصف، وتنهض كعش النسر، فوق السور الذى يحيط بالحمراء من الجانب الشمالى، وتبدو كما لو كانت معلقة فى قمة برج ينهض بدوره على صخرة عالية، وتحت أقدامها، فى عمق بعيد، يوشوش نهر الدارو، ومن هناك يمكن للمرء أن يستمتع بمنظر البيازين فى انحداره، وبجنة العريف العالية، وتلمع بين أشجار الرمان والغار، وبقمة جبل بليته Veleta التى يغطيها الثلج، ويقال عنها أنها تصافح السماء، ولها كل روعة الخيال وفتنة الأحلام.

لا تُظهر الحمراء كل سحرها، ولا تكشف عن كل مفاتنها، إلا بعد تأمل طويل. لابد من العيش فى هذا المسكن الذى بنته الجن، ويجب أن يحلم المرء فى مغاراتها الحجرية الرطبة، وبين أفنانها وأعمدتها، والاستسلام لتأثير سحرها المتنوع الدائم، سواء عندما يدلق الفجر طراوة نداها السماوى فوق سطوحها وممراتها، أو

حين يرسل أشعة الضوء المتفجرة وترتجف فوق الجدران كما لو كانت تزينها بالجواهر، أو عندما تُغرق كل القصر فى أشعتها الذهبية الجنوبية المجيدة، وتجعله يسطع بهاء، كما لو كان من عالم آخر غير دنيانا هذه.

وتدخل، ومعك شعراء المشرق بين يديك، تستروح فى الشرفات العالية أريج تلك الوحدة الشافية، أو تجلس إلى جانب نافورة الأسود تتسمع إلى خرير المياه الساحرة تحت الأرض، بينما قمر ليلة صيف أندلسية يبحر فى السماء، ناثرًا ضوءه بين عمود وآخر، ويملأ الأروقة والتربيعات بظلال متمهلة وشاردة، كأنها أرواح عصور مضت، وعبقريات زمن خلا. ومن يُتِح له الحظ فحسب مثل هذا، يستطيع أيضًا أن يتعمق فى أسراره، وأن يحل ألغازه، وحينئذ تغمره الأشعار المنقوشة التى تزين القاعات، وتغطى الجدران والأعمدة، وتبدو كرموز سحرية بالأمان والاطمئنان، وتلفه فى حنان غامر، وتنشده أغنية جميلة، ويتحول البناء كله إلى شعر وإيقاع، وتتحدث نافورة الأسود أولا، يقول نقش الحوض:

تباركَ من أعطى الإمام محمدًا ... مغانىَ زانتْ بالجمالِ المغانِيَا
وإلّا فهذا الروضُ فيها بدائعٌ ... أبى الله أن يلقى لها الحسنُ ثانيًا
ومنحوتةٍ من لؤلؤٍ شقَّ نورُها ... تحكى بمرفضِّ الجنانِ النواعيا
يذوبُ لجينٌ سال بين جواهرٍ ... غدا مثلُها فى الحسن أبيض صافيًا
تَشابَهَ جارٍ للعيون بجامدٍ ... فلم نَدْرِ أيًّا منهما كان جاريًا
ألم تر أنَّ الماء يجرى بصفْحِها ... ولكنها مدَّتْ عليه المجاريا
كمثل محبٍّ غاض بالدمع جَفْنُه ... وغصَّ بذاك الدمع إذ خاف واشيًا
وهل فى التحقيق غيرُ غمامةٍ ... تفيضُ إلى الآسادِ منها السواقيا
وقد أشبهْت كفَّ الخليفةِ إذْ غدتْ ... تفيضُ إلى أسد الجهادِ الأياديا
فيا من رأى الآساد وهى روابضٌ ... عداها الحَيَا عن أن تكون عواديا
ويا وارثَ الأنصار لا عن كلالَة ... تراثَ جلال يستخفُّ الرواسيا
عليكَ سلامُ الله فاسلمْ مخلَّدًا ... تجدِّدُ أعيادًا وتُبلى أعاديا

أما ساحة الأختين فتطرى نفسها عجبًا على هذا النحو:

وروضةِ حُسْن للشباب نضيرة ... هصرتُ بغصن البان فيها المجانيا

ولله مبناكَ الجميل فإنّه ... يفوق على حكْم السعودِ المبانيا
فكم فيه للأبصار من مُتَنزَّهٍ ... تَجدُّ به نفسُ الحليم الأمانيا
تبيتُ لهم كفُّ الثريا معيذةً ... ويصبح معتل النواسم راقيًا
وطامحةٍ فى الجو غير مطالة ... يردُّ مداها الطرفَ أَحْسَرَ عانيا
تمدُّ لها الجوزاءُ كفَّ مسارع ... ويدنو لها بدرُ السماء مناجيًا
وتهوى النجومُ الزهر لو ثبتتْ به ... ولم تكُ فى أفق السماء جواريا
ولو مثلتْ فى سابقيه لسابقتْ ... إلى خدمة ترضيك منها الجواريا
ولا عَجَبٌ أنْ فاتت الشهب بالعُلا ... وأنْ جاوزتْ منها المدى المتناهيا
فبين يدىْ مثواك قامتْ لخدمةٍ ... ومن خدمَ الأعلى استفاد المعاليا
به البهو قد حاز البهاءَ وقد غدا ... به القصرُ آفاقَ السماءِ مُباهيا
وكم حُلَّةٍ جلّلتهُ بحليْها ... من الوشْى تنسى السابرىَّ اليمانيا
وكم من قسىٍّ فى ذراه ترفَّعتْ ... على عمُد بالنور باتتْ حواليا
فتحسبها الأفلاك دارتْ قسيُّها ... تظل عمودَ الصبح إذْ باتَ باديا
سوارى قد جاءتْ بكلِّ غريبة ... فطارت بها الأمثالُ تجرى سواريا
به المرمر المجلوُّ قد شفّ نوره ... فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
إذا ما أضاءتْ بالشعاع تخالُها ... على عظمِ الأجرام منها لآليا
فلم نر قصرًا منه أعلى مظاهرًا ... وأرفع آفاقًا وأفسح ناديا
ولم ندرِ روضًا منه أنعم نضرةً ... وأعطر أرْجاء وأحلى مجانيا
مصارفة النقدينِ فيها بمثلها ... أجازَ بها النقدين منها كما هيا
فإنْ ملأتْ كفُّ النسيم بمثلها ... دراهم نورٍ ظلَّ عنها مُكافيا
فيملأ حجر الروض حول غصونها ... دنانيرَ شمس تترك الروضَ حاليا
[عجائبُ لم تخطر ببالٍ وإنّما ... ظَفرْنا بها عن همة هى ما هيا][٨٩]

---

(٨٩) البيت الأخير اختفى فى وقتنا، وعوض بزخرفة حديثة يتكرر فيها الرقم ٧، ولكن الونسو دل كستيو احتفظ لنابه، ولم يكن اختفى على أيامه. والأبيات من شعر ابن زمرك قالها بمناسبة إعذار الأمير ابى عبد الله محمد، بن محمد الخامس، وتوجد كاملة فى نفح الطيب، جـ٧، ص١٨٨ - ١٩٥، طبعة إحسان عباس.

● انظر أيضًا: اميليو غرسية غومث، شعراء الأندلس والمتنبى، ترجمةالدكتور الطاهر أحمد مكى ص ٢٢٦، الطبعة الرابعة، دار المعارف القاهرة عام ١٩٨٥. (المترجم)

صحراوات اليوم أصبحت هذه القصور!

اختفت كل الحياة البهجة التى كانت تملأ أجواءها يوما، فى عصور خلت، ولم يعد أحد أبدًا يسمع سيدة Zaida تعزف فى شرفتها على العود لعاشقها. ولكن أحيانًا، فى أيام الحفلات، والمهرجانات والأعياد تتفجر كل النوافير، ويلتقط القصر الصامت أنفاسه، وحينئذ، وحيثما تمضى، يتدفق الماء صافيا، قويًا عنيفًا لا يقاوم، كمشاعر تعرضت للضغط زمنًا طويلا، ثم تفجرت مندفعة من أعماق القلب، فياضة كشريط من الفضة، تتدفق فى الشلالات، وتمضى عبر قنوات من الرخام المصقول الناصع. وكان يقال: إن البهاء القديم يرفع رأسه مع الماء من بين حشاشات الأرض، وكان مدفونًا هناك من زمن بعيد، كما لو أن أرواح سادة ذلك البيت السحرى، وعبقرية العرب، مع خزائنه المخبأة، صحت لتزيّن من جديد هذه الأمكنة الممتازة، بكل جلال ماضيها.

ويزدهر ربيع شرقى، ينتشر وينعش الأحجار، يُعيرها الضوء والدفء، وتنبعث الخضرة فى البراعم من جديد، ويهيج ناضجًا، وتتفتح الأزهار، وتنتشر قطرات الندى، على حين يعبق نسيم الصبا عبر التربيعات، بأريجه الذى التقطه من بلاد النخيل، والضوء قلقًا ومطحونًا يتكسر أشعةً فى النوافير، ويجرح الضباب، ويطوف ويلمع كسحابة فجر متمهلة، وترتفع أنغام الزمن القديم فى كل الأروقة والقاعات، وتندفع فى حشد من الطرب والابتهاج.

سعيد من يستطيع زيارة الحمراء فى مثل تلك الأيام. حينئذ سوف تستيقظ فى روحه الأحلام المكبوتة، وتحيا الآمال الضائعة، كما تنبعث حوله بهجة القصر العربى فى ماضيه، نصف أمجاد ونصف أطلال.

أعرف جيدًا.. ليس كل الناس يرون هذه الأشياء ويحسون بها، ويجب ألا يدخل هذه القصور أبدًا من لا يحترمونها ويتعرفون على الأحجار بوصفها أحجارًا فحسب، ولا يفهمون روح الشرق العظمى، ولا يأخذون بها، وهى تتحرك وتتنفس، وتطوف فى هذا العالم المزدهر من المرمر.

ونصعد مرة أخرى إلى القمة، عبر طريق صخرى معلق بين الشجيرات

المتشابكة، والزهور الوارفة، وورود العسل الفواحة، حيث جنة العريف برباها العالية تطل على الوادى العميق. وبيت الراحة هذا عانى على نحو لا يقارن أكثر من بقية أجزاء الحمراء الأخرى التى قاومت الفناء، وقد أصبحت جنة العريف أطلالا تقريبًا، أو أصابها التجديد على نحو بعيد، فزخارف الأفاريز، والتوريقات، ونقوش الجدران والعقود، وقاعات الأعمدة وغرفاتها، أتت يد الإنسان القاسية على الجانب الأكبر فيها، وكل ما ندركه منها حين نتأمل حالتها الحاضرة، فكرة مجملة خفيفة عن الطريقة التى كان بها العرب يخططون معمارهم فيما يتصل بإنشاء الحدائق، وكيف أنها تفتن المشاعر بساحاتها الجميلة وأروقتها الرشيقة، ودقة استخدام المياه فى التجميل، والأزهار الكثيفة والغابات الصغيرة المثمرة، والأغصان الكثيفة المظلة، ورغم ذلك لا تزال تحتفظ بموقعها الفاتن الذى لا يقاوم سحره، على الرغم من احتضارها الحالى. ويبدو أنها كانت المقر الصيفى لملوك غرناطة، بساحتها التى تتخللها الجداول، وأشجار الغار تغمرها بفيء طرى، وبمناظرها الرائعة تفوق أى، وكل، وصف حيث يستمتعون من خلال لمناظر والحدائق المعلقة برؤية شاعر حالم اقتحم بسحره عالم الحقيقة.

ومن لم يقض أبدا أصيل يوم ربيعى فى جنة العريف لا يحق له أن يقول أنه رأى الخلق فى عظمته كاملة: وهذه الوحدة الغرامية، وظل أشجار الرمان الرقيق، والعطر الفوّاح تعبق به ألف زهرة وزهرة، ومنظر جنة عدن النضرة، فى أجمل مقاطعة على وجه الأرض، واد بين جبال الألب، تحت شمس استوائية، تكسوه خضرة غنية جنوبية، وكل هذا يملأ الروح بدهشة دينية حلوة، كمن يدخل فى معبد الطبيعة المقدس والغامض. ومن خلال أزهار الغار والأشجار التى تزيّن الحياة، تلتف فى جمال، أو تتدلى فى فتنة، يمتد البصر عبر انحدار وراء انحدار، وكلها تكسوها الخضرة، حيث يتكاثر التين الشوكى، ويتفتح نبات الصبر الأمريكى، ويمد أوراقه الكبيرة والعريضة، وتتشابك أغصان أشجار الريحان والليمون، وتسرع الجداول الصغيرة الموشوشة، تعلوها رغوة، فى العمق بين أشجار الدفلى. وترسل أشجار السرو فيئها الأكثر طولا، وتمتد هبات أرجوان نيرّة فوق الفج، على حين تخفى الشمس قرصها بين قمم الجبال، وشرفات الحمراء،

وتتوج أعالى أشجار الدرداء، وتسبح فى بريق أحمر ملتهب، وبينما زهرة الأصيل تتلألأ على رءوس الأحجار، وفى قمم السيرا العالية تتوجها الثلوج، وتعكس كل ألوان قوس قزح، وتغمر الوادى كسحابة من الضوء المتموج الكسول، ولا تلبث أن تتحول إلى بخار أزرق، ثم تتلاشى أخيرًا بين الظلال، ويرن فى مئة برج لدق الأجراس فى المدينة إيقاع «حواء مارية»، وعندما يسقط الظلام ينهض ليل الجنوب من بين كل المغارات، حالما كأميرة من أميرات الحكايات المشرقية، ويتدفق شذا كمائم الزهر الأشد التهابًا، موشوشًا فوق قمم أشجار السدر، ويدخل الليل جنة العريف، وحينئذ تبدو الأزهار والثمار أقوى بريقًا، وأشد لمعانًا بين الأوراق الخضرة، وتمضى أشعة القمر الطرية متسربة بين الأغصان، تتأرجح بين النوافير، وتترقرق على الجداول، وتغرد الأطيار فوق الأغصان فى رقة وعذوبة، ويسمع من بعيد صوت قيثارة، وهزة شهوانية تجتاح الحدائق والقاعات، وتبدو الينابيع حينئذ وكأنها تتدفق فياضة، ومياهها تجرى أكثر غزارة، كما لو أن تنفس الليل يقوى حركة المياه المتعبة، ويمدّها بالأمل، وتلمح الأميرات فى حجابهن الأبيض على حافة الشرفات، يستمعن لموسيقا «زهرة» عبقرية رونق الأصيل، ودليل جوقة النجوم الساطعة.

● **دمعة على مجد مضى:**

ولكن، بين المفاتن التى أضفتها الطبيعة على قصور غرناطة الملكية، لا يكاد المرء يستطيع أن يكبح مشاعر الحزن العميقة تجتاح داخله، فهى وحدها، الأخيرة، وربما كانت الأقل أهمية بين أعمال عربية أخرى رائعة، التى قاومت عوادى الزمن، وطاولت الفناء، وبقيت حتى يومنا.

أين قرطبة العربية؟ ملكة المدائن، ومكة الغرب، يحج إليها المؤمنون فى قوافل ممتدة لا تنتهى؟ وأين مدارسها ومكتباتها، وكانت الخلية الأولى لعالم المعرفة فى أوربا، والنبع الذى يقصده العطشى إلى العلم من كل المقاطعات؟

وأين الزهراء، مدينة الأساطير، وقد أضفى عليه االأمويون كل ترف الشرق وعظمته؟ لقد ابتلعتها الأرض، وفنى كل ذلك العالم الجميل. ومزق الزمن تميمتها

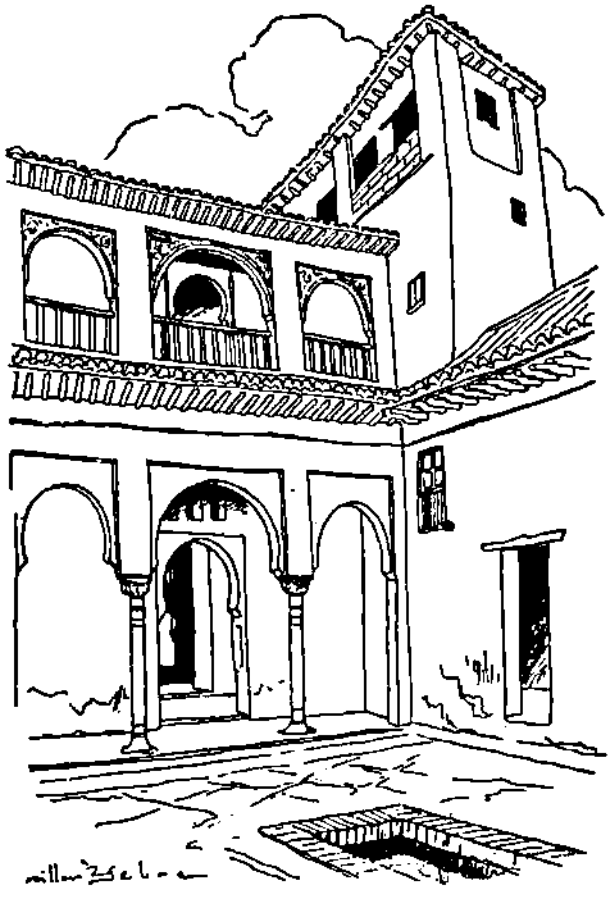

الساحة والقاعات التى تطل عليها فى قصر دار الحرة العربى

التى ارتبط وجودها بها، وبعثرت الرياح رماد الخلفاء كله، واليوم.. تبدو عظمة امبراطوريتهم غارقة فى ماض سحيق، أبعد من أقدم أية مدينة فى العالم البدائى، كأنها قد مضى عليها آلاف الأعوام حين كانوا فى أوج ازدهارهم. إن أعمدة طيبة فى مصر، مدينة المائة باب، لا تزال قائمة حتى يومنا، ومعابد نينف Ninve عاصمة الأشوريين لا تزال تطفو بتماثيلها الضخمة فوق أعماق التاريخ المظلمة، وفوق حلم قرون خلت. ولكن لو تساءلنا عن قصور عبد الرحمن الناصر لا أحد يعرف، ولا حتى يشير إلى المكان الذى كانت فيه.

ومع ذلك، فثمة ما هو أشد حزنًا من فكرة ضياع هذه الآثار الفنية العديدة، إنه الحظ التعس للشعب الذى توّج شبه الجزيرة بهذه الروائع. نعم، إن تأمل خراب الروح فى الإنسان الذى يقدمه لنا الشعب الإسبانى فى موقفه الحالى يُحزن أكثر مما تحزن الخرائب والأنقاض فى عاصمة مدمرة، وكانت يوما، فى عصر آخر، تزدهر بالناس والحياة!

لقد تعرض العرب الأندلسيون للاضطهاد، وأزيحوا عن وطنهم بحرًا، وسقطوا من جديد بين مخالب همجية أقسى من التى كان عليها أسلافهم الأقدمون، وحتى مقابرهم اختفت من الأرض، وتقطع إسبانيا طولا وعرضًا، تبحث عبثًا عن مقابر لهم على الأقل، مثل تلك المقابر الصامتة التى فى آسيا، ولا تحمل أية أسماء، ولكنها تومىء إلى مهد نوعنا، إنها بقايا شعوب جاهلة من العالم البدائى.

لقد أتى الغضب والزمن المدمر على آلاف الأعمال لعلماء العرب وشعرائهم فى إسبانيا، ولم يبق منها إلاّ القليل موزعًا بين مكتبات المشرق وأوربا، وما تضمه هذه المؤلفات من فكر ليس فى خدمة العرب، وهم أنفسهم أساتذتنا فى مختلف العلوم، فهم يتجولون بدوا وجهالا عبر صحراوات أفريقيا. ومن الحق أن ذكرى الأندلس الجميلة لا تزال تعيش بينهم تقليدًا متواصلا، وتتوارد فى خيالهم حلما غائمًا، ويورث الآباء أبناءهم مفاتيح بيوتهم فيها، أملا فى العودة إلى الحياة على ربوعها يومًا، عندما ترفرف راية الإسلام من جديد على أبراج الحمراء، ولكن هذه اللحظة لم تجىء أبدًا. وكل يوم تظهر النجوم وتغيب فى صفحة السماء، ولكن

هلال الإسلام يشحب فى الأفق، كى لا يرتفع نحو المجد، ولا يعود إلى الاشراق أبدًا. وربما فى مستقبل غير بعيد جدًّا سوفف يذهب، ويمسح تيار القرون المندفع الإسلام وشعوبه وثقافته من على وجه الأرض[٩٠]. وسريعًا سوف تتلاشى آثاره فى أوربا، وتبرز الحمراء وسط فيضان كاسح وغاضب غَمَر الآثار الأخرى وأغرقها، كما تلمح فوق الأمواج البرج الوحيد لمدينة ما غاصت فى الماء، ومع ذلك فإن أسوارها تتهاوى حجرًا وراء آخر، تحت طرقات التدمير.

من الاعتقادات الشعبية السائدة فى المشرق، أن نجم سهيل اللامع له قوة سحرية، وأن وهج الأمبراطورية العربية كان من عمله، وفى عصر عبد الرحمن الناصر كان ذلك النجم لا يزال يرتفع فى أفق اسبانيا الشمالى، ويلمع وسط ضوء أحمر متوهج فوق القصور المتألقة،والمنارات السامقة[٩١]، ولكن هذا النجم فى دورته، أخذ يمضى متمهلا مائلا نحو الجنوب حتى يعادل الليل والنهار، وتختفى المبانى الرائعة واحد وراء آخر.

ولا يزال هذا النجم يرتفع فوق رغوة البحر فى شواطئ الأندلس الجنوبية، ويحمم ببريقه الخافت أنقاض شرفات آخر قصور العرب، وعندما يدع أوربا إلى

---

(٩٠) أبقيت هذه النبوءة الواهية على حالها لأنها تعكس موقف الأوربيين من الإسلام مهما تواروا وراء الموضوعية. وبعد الحديث الموضوعى عن الإسلام فى إسبانيا يختم شاك كتابه بنتيجة لا تؤدى اليها مقدماته. وعلى أى حال ربما كان واقع الإسلام فى القرن التاسع عشر الميلادى يبرر له ان يحلم، فى لحظة رومانسية تام معها العقل، وطغت الأمنيات المخبأة، وأعتقد أن شاك غير سعيد الآن فى قبره، ومع كل لحظة تأتى يصبح أقل سعادة بنبوءته، فالإسلام يبعث من جديد، ويمضى صعدا، وفى ثورة إيران المجيدة وما سيتلوها دليل على أن حيويته لا تنفد، وأن زحفه لن يتوقف. (المترجم)

(٩١) تأكيد المقرى نفح الطيب (١/١٠٣ طبعة أوربا و ١/١٦٤ طبعة إحسان عباس) بأن وادى سهيل غربى مالقة، فيه جبل يحمل اسم سهيل ايضا، ولا يرى نجم سهيل بالأندلس الا منه، ليس صحيحا، لأن سهيل يتحرك نحو الجنوب، وهو الآن يرتفع فوق قادش. انظر : Humboldt, Kosmos, ll, 332.

الأبد، فإن القصر العربى سوف يصبح كله، بدوره، كومة من الأنقاض أيضًا[٩٢].

(٩٢) نأمل الا تتحقق هذه النبوءة الفلكية الشاعرية، وبفضل المهندس الماهر روفائيل كنتريراس، ولما يزل شابا، ويكافح منذ سنوات ولسنوات أطول، ضد تأثير سهيل الشرير، ويدفع الضريبة التى لابد أن نؤديها للطبيعة، لكى يجعلنا جديرين بأن نكون خلفاء لمن سبقونا فى حماستهم وفنهم. وإنه لجدير بأن نشيد هنا، بما تدين له به الحمراء. وما يهمنا الآن ألا يأتى يوم يكون فيه وزير مالية فى حاجة الى المال، ككل الذين فى اسبانيا، وهى بلد سخى وقليل الموارد، وليس مغرما بالفن العربى الإسبانى، ولا بجمال الطبيعة، فيبيع بيوت الحمراء وأبراجها، ويحولها الى حى عادى حديث ، ولا يحول، هو أو غيره، دون المياه التى تروى الغابات والأشجار التى تحيط بالقلعة، وتضفى عليه فتنة رائعة، وتصبح هذه الجنة الفيحاء مجرد تبة جرداء، مثل مرتفعات كثيرة فى بلادنا. (خوان باليرا)